فصل

في قتل المؤتمن بالخرقانية ووقعه السودان بين القصرين وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص اقطاع المصريين، فقطع منهم الدوائر من أجل من معه من العساكر، وكان بالقصر خصي يدعى بمؤتمن الخلافة، متحكم في القصر، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا على الأسدية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه فيؤخذ من بقي من أصحابه بالقاهرة، ويتبع من ورائهم فتكون عليهم الدائرة ، فكاتبوا الفرنج واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء فرأى مع إنسان ذي خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي فأنكرهما، فأخذهما وجاء بهما إلى صلاح الدين ففتقهما فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر يرجون بحركتهم حصول النصر، فأخذ الكتاب وقال: دلوني على كاتب هذا الخط فدلوه على يهودي من الرهط فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه على خطه ويقابلوه نطق بالشهادة قبل كلامه، ودخل في عصمة اسلامه، ثم اعترف بما جناه وشيده من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة وأنه بريء من هذه الآفه، فحسن لدى السلطان إسلامه، وثبت اعتصامه، وعرف استسلامه ورأى اخفاء هذا السر واكتتامه، واستشعر الخصي العصي وخشي أن يسبقه على شق العصا العصي، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مغضب، وعنه مغض لا يأمر فيه ببسط ولا قبض إلى أن استرسل واستبسل، فظن أن ما نسله من الشر العقيم نصل، وكان له قصر في قرية يقال لها الخرقانية لخرقه ورقع ما يتسع عليه من خرقه، وهو بقرب قليوب فخلا فيه يوما للذته، ولم يدر أنه يوم ذلته وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ

رأسه ونزع من جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع، فورد موارده من رداه على أدون مشرع.

قال: ولما قتل غار السودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه وأذلوه واستباحوه واستحلوه، فحسبوا أن كل بيضاء شحمه وأن كل سواد فحمه، فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ومقدّمهم الأمير أبو الهيجا، واتصلت الحرب بين القصرين وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشر يومين حتى حس الأساحم بالجبن، وكلما لجؤوا إلى محلة أحرقوها عليهم وحووا ما حواليهم واخرجوا إلى الجيزة وأذلوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السودان بعدها من الشدّة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا، وأينما وقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة، وكانت بهم المعمرة المعمورة، فأخلى بنيانها من القواعد، فأصبحت خاويه، ثم حرثها بعض الأمراء واتخذها بستانا، فهي الآن جنة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أزره بمصر لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة. قال: وباشر بنفسه وقعة السودان هذه، وكان له فيها أثر عظيم، ومن عجيب ما اتفق أن العاضد كان يتطلع من المنظرة يعاين الحرب بين القصرين ، فقيل إنه أمر من بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا، وقيل إن ذلك كان عن غير اختيار، فأمر شمس الدولة الزراقين باحراق منظرة العاضد فهم أحد الزراقين بذلك وإذا باب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال: أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ويقول: دونكم العبيد الكلاب

أخرجوهم من بلادكم، وكانت العبيد مشتدّة الأنفس بأن العاضد راض بفعالهم، فلما سمعوا ذلك فت في أعضادهم فجبنوا وتخاذلوا وأدبروا.

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدة منها

بالملك الناصر استنارت
في عصرنا أوجه الفضائل
على من حقه فروض
شكراً لما جاد من نوافل
يوسف مصر الذي إليه
تشدّ آمالنا الرواحل
أجريت نيلين في ثراها
نيل نجيع ونيل نائل
وما نفيت السودان حتى
أحكمت البيض في المقاتل
صيرت رحب الفضاء ضيقاً
عليهم كفة لحائل
وكل راء منهم كراء
وأرض مصر كلام واصل
وقد خلت منهم المغاني
وأقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا إلاّ بطل
فكيف لو أمطروا بوابل
والسود بالبيض قد أبيحوا
فهي نواز بهم نوازل

مؤتمن القوم خان حتى
غالته من شدة غوائل
عاملكم بالخنا فأضحى
ورأسه فوق رأس عامل
يا مخجل البحر بالأيادي
قد آن أن تفتح السواحل

فقـــدّس القـــدس مـــن خبـــاث
أرجـــاس كفـــر غتـــم أراذل

قال العماد: ومما مدح به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئة له بالملك، وتعزية بعمه:

أيـا يـوسـف الاحسـان والحسـن خير مـن
حـوى الفضـل والافضـال والنهـى والأمـرا
ومـن للهـدى وجـه النجـاح بـرأيـه
تجلى وثغـر النصر مـن عـزمتـه افترا
حمى حـوزة الـديـن الحنيـف بحـوزه
مـن الخالـق الحسنى ومـن خلقـه الشكـرا
أبـوه أبـى إلاّ العـلا وعمـه
بمعـروفـه عـم الـورى البـدو والحضرا
وطـال الملـوك شيركـوه بطـولـه
ومـا شـار كـوه في العـلا فحـوى الفخـرا
بنـو الأصفـر الافـرنـج لاقـوا ببيضـه
وسمـر عـواليـه منـايـاهـم حمرا
ومـا أبيـض يـوم النصر واخضر روضـه
مـن الخصـب حتـى أسـودّ بـالنقـع واغبرا
رأى النصر في تقـوى الالـه وكـل مـن
تقـوى بتقـوى الله لا يعـدم النصرا
ولما رأى الـدنيـا بعين مـلالـة
أغـذ مـن الأولى مسيراً إلى الأخـرى
وقـام صلاح الـديـن بـالملـك كـافـلا
وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبـت مصر إلى عصر يـوسـف
أعـاد إليهـا الله يـوسـف والعصرا
فـأجـرى بها مـن راحتيـه بجـوده
بحـارا فسماهـا الـورى انمـلا عشرا

هـــزمتـــم جنـــودا المشركين بـــرعبكـــم
فلـــم يلبثـــوا خـــوفـــا ولم يمكثـــوا ذعـــرا
وفـــرقتـــم مـــن حـــول مصر جموعهـــم
بكسر وعـــاد الكسر مـــن أهلهـــا جبرا
وآمنتـــم فيهـــا الـــرعـــايـــا بعـــدلكـــم
وأطفـــأتـــم مـــن شرشـــاورهـــا الجمـــرا
بسفـــك دم حطتـــم دمـــاء كثيرة
وحـــزتـــم بما أبـــديتـــم الحمـــد والشكـــرا
ومـــا يـــرتـــوي الاســـلام حتـــى تغـــادروا
لكـــم مـــن دمـــاء الغـــادريـــن بها غـــدرا
فصبـــوا على الأفـــرنـــج ســـوط عـــذابها
بـــأن يقسمـــوا مـــا بينهـــا القتـــل والأسرا
ولا تهملـــوا البيـــت المقـــدّس واعـــزمـــوا
على فتحـــه غـــازيـــن وافترعـــوا البكـــرا
تـــديمـــون بـــا لمعـــروف طيـــب ذكـــركـــم
ومـــا الملـــك إلا أن تـــديمـــوا لكـــم ذكـــرا
وإن الـــذي أثـــرى مـــن المال مقتر
وان تفنـــه في كســـب محمـــدة أثـــرى

قال : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه مبشرة بطيب أنبائه فمنها كتاب ضمنه هذا البيت:

مـــا كنـــت بـــا لمنظـــور أقنـــع منكـــم
ولقـــد رضيـــت اليـــوم بـــا لمسمـــوع

فقلت في جوابه أبياتا منها هذه:

يـــا هـــل لســـالـــف عيشتـــي بفنـــائكـــم
مـــن عـــودة محمـــودة ورجـــوع
مـــذ غبتـــم عـــن نـــاظـــري مـــا أذنـــت
للقلـــب شمـــس مسرة بطلـــوع

كنت المشفع في المطالب عندكم
فغدوت أطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى
وبقربكم كم بت غير قنوع

قال: ووصل أيضا منه كتاب ضمنه هذا البيت:
وانثر درالدمع من قبل أبيضا
وقد حال مذبنتم فأصبح ياقوتا

فنظمت في جوابه أبياتا منها:
هنيئا لمصر حوزيوسف ملكها
بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا
يماثل إلا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبي أبشر اليوم بالمنى
فقد نلت ما أملت بل حزت ما شئتا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضد بالقصر ابنى شاور: الكامل ، وأخاه يعني الطاري، يوم الإثنين الرابع من جمادى الآخرة، وذلك أنه لما قتل شاور عاذوا في القصر فكأنما نزلوا في القبر فلو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سلموا وامتنعوا وعصموا، فإنه ساءه قتل شاور وإن كان أمن بقتله ما حاذر.

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له أخوان طي تقدّم ذكر قتل ضرغام له، والآخر الطاري.

قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الروحي في تاريخه:أخذ ابنا شاور شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم ، وأخوه الملقب بفارس المسلمين ، فقتلوا ودير برؤوسهم.

قال: لما ولي صلاح الدين ساس الرعية، وأظهر لهم من العدل مالم يعلموه، فاجتمع أهل البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة إخراجا عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم، وشتت شملهم (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)(١١٥) .

قال: ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها ووارداها، جليلها وحقيرها، وغزا بلاد الشام غزوتين.

قال ابن شداد: وفي المحرم من هذه السنة مات ياروق الذي تنسب إليه الياروقية، يعني المحلة التي بظاهر حلب.

قال غيره: وفيها احترق جامع حلب وأسواق البر، وأخذ نو الدين في عمارته آخر السنة.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ففي أول صفر منها نزل الفرنج خذلهم الله تعالى على دمياط من الديار المصرية.

قال ابن الأثير: كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدّونهم ويعرفونهم ما تجدّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدّوهم بالمال والرجال والسلاح، واعتمدوا على النزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديارمصر، فلما نزلوها حصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدّهم بالمال والسلاح والذخائر، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه، والفرنج من أمامه، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالا، كلما تجهزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الافرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى مالم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع، فلما رأى الأفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين بلادها ونهبها واخرابها، رجعوا خائبين، ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل:« ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين» ، فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها، وكان مدّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، وأخرج فيها صلاح الدين أموالا لا تحصى، حكي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

قال القاضي ابن شدّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أن صلاح الدين يملك بلادهم، ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك، فاجتمع الفرنج والروم جميعا وحدّثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه ، فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات والجروخ، وآلات الحصار وغير ذلك، ولما سمع الفرنج بالشام ذلك اشتدّ أمرهم، فسرقوا حصن عكار من المسلمين وأسروا صاحبها، وكان مملوكا لنور الدين يسمى خطلخ العلمدار، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بعلبك وتدمر، ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط، قصد شغاف قلوبهم فنزل على الكرك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج الساحل، فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له، ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب في رمضان، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خربت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السنة المذكورة، وهو بعشترا، فسار يطلب حلب فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحجة، وبلغه الخبر وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل.

ولما علم صلاح الدين شدّة قصد العدوّ دمياط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه، ووعد المقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات، وازعاج العدوّ عنهم إن نزل عليهم، وبالغ في العطايا والهبات ، وكان وزيراً متحكماً لايرد أمره في شيء، ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتدّ

زحفهم إليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله عليه يشن الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونصر الله المسلمين يؤيدهم، وحسن قصده في نصرة دين الله يسعدهم وينجدهم حتى بان لهم الخسران، وظهر على الكفر الإيمان، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم، ويسلمون بنفوسهم، فزحلوا خائبين خاسرين، فحرقت مجانيقهم ونهبت آلاتهم، وقتل منهم خلق عظيم، وسلم البلد بحمد الله ومنه.

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، ينهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العدد بعد العدد، يسهر ليله ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سرّه وجهاره، ولاينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المقعد المقيم، وسبق تقي الدين ابن أخي السلطان إلى دمياط فدخلها وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها، واتصل الحصار، وتواصل الأنصار، ودب في الفرنج الفنا، وهب عليهم البلا، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول بالذل الأكمل ، والصغار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واهتم، وأستعصب الملم، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلا مقدّمه الأمير قطب الدين خسرو الهذباني، وكان مقداما مقدّماً وهماما معلما، وأمره أن يسير بالعسكر ويخوض بهم بحر العجاج الأكدر، فوصل في النصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج باسبوع، فوقع روعه من الكفر في كل روع.

قلت: وبلغني من شدّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتبسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لاستحيي من الله تعالى أن يراني

متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج، وبلغني أن إماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله ربما لا يصدّقني ، فإذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له: بعلامة ما سجدت على تل حارم، وقلت يارب انصر دينك، ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال:فتعرضت له فسألني عن أمري فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظه الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألح علي في ذلك، فقلتها، فبكى رحمه الله وصدّق الرؤيا ، فأرخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل

أرسل نور الدين كتابا إلى العاضد صاحب القصر ينهيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم ، والاقتصار على صلاح الدين و الزامه وخواصه، فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك، ويعلمه أنه ما أرسلهم، واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، فإن الفرنج لايرهبون إلا منهم ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية وتحصلوا منها على الأمنية، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نعمه التي لاتحصى، قلت ولعمارة اليمنى من قصيدة:

من شاكر والله أعظم شاكر
ما كان من نعمى بني أيوب
طلب الهدى نصراً فقال وقد أتوا
حسبي فأنتم غاية المطلوب

حلوا إلى دمياط عند حصارها
عز القوي وذلة المغلوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربة
لو لم يجلوها أتت بكروب
فالناس في أعمال مصر كلها
عتقاؤهم من نازح وقريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً
وهم اللباب فأنت غير لبيب

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة يقول:

ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة
ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم
لديه رماح اشرعت أو سلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا
وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم
ألوف ألوف خيلهم والرواجل
رأوا دونهم أسداً بأيديهم القنا
وبيضاً رقاقاً أحكمتها الصياقل
وداروا بها في البحر من كل جانب
ومن دونها اسد من الموت حائل
رجا الكلب ملك الروم إذ ذاك فتحها
فخاف فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة
كأنهم ذلا نعام جوافل
وما أملوا أن يلحقوا ببلادهم
لتعصمهم مما رأوه المعاقل

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعمل له أبياتا في صلاح الدين تهنئة بالنصر في دمياط، فعملت قصيدة منها:

يـا يـوسـف الحسـن والاحسـان يـا ملكـا
بجـدّه صـاعـــــدا أعـداؤه هبطـوا
حللـت مـن وسـط العليـاء في شرف
ومـركـز الشمـس مـن أفـلاكهـا الـوسـط
هنيـت صـونـك دميـاط التي اجتمعـت
لهـا الفـرنـج فما حلـوا ولا ربطـوا
مصر بيـوسفهـا أضحـت مشرفـة
وكـل أمـر لهـا بـالعـدل منضبـط
وحين وافى صـلاح الـديـن أصلحهـا
فللمصـالـح مـن أيـامـه نمـط

قال العماد: ومما سيرته إلى صلاح الدين قصيدة منها:

كـأن قلبـي وحـب مـا لكهـا
مصر وفيهـا المليـك يـوسفهـا
هـذا بسلـب الفـؤاد يظلمنـي
وهـو بقتـل الاعـداء ينصفهـا
الملـك النـاصر الـذي أبـدا
بعـز سلطـانـه يشرّفهـا
قـام بـأحـوالها يـدبـرهـا
حسنـا وأثقـالها يخففهـا
بعـدلـه والصـلاح يعمـرهـا
وبـالنـدى والجميـل يكنفهـا
مـن دنـس الغـادريـن يـرحضهـا
ومـن خبـاث العـدى ينظفهـا
وإن مصرا بملـك يـوسفهـا
جنـة خلـد يـروق زخـرفهـا

وإنـــه في السماح حـــاتمهـــا
وإنـــه في الـمـــوقـــار أحنفهـــا
يـــوســـف مصر الـــذي مـــلاحمهـــا
جـــاءت بـــأوصـــافـــه تعـــرفهـــا
كتـــب التـــواريـــخ لا يـــزينهـــا
إلا بـــأيـــامـــه مصنفهـــا
وحطـــت دميـــاط إذ أحـــاط بها
مـــن بـــرجـــوم البـــلاء يقـــذفهـــا
لاقـــت غـــواة الفـــرنـــج خيبتهـــا
فـــزاد مـــن حسرة تـــأسفهـــا
أوردت قلـــب القلـــوب أرشيـــة
مـــن القنـــا اللـــدّمـــاء تنـــزفهـــا
وليتهـــا سفكهـــا فعـــاملهـــا
عـــاملهـــا والسنـــان مشرفهـــا
يمضي لـــك الله في قتـــالهم
عـــزيمـــة للجهـــاد تـــرهفهـــا

وله فيه من أخرى:

قـــد استقـــرت أمـــوري
فيـــه بحســـب اقتراحـــي
كما استقـــر صـــلاح الـــ
ـــدنيا بملـــك الصـــلاح
تنير شمـــس أياديـــ
ـــه في سماء السماح
وأمـــره مستفـــاد
مـــن القضـــاء المتـــاح

وأرسله نور الدين إلى خلاط ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن قال: فلما كنت بماردين كتبت إلى بعض المعارف:

obeikandi.com

قـــــدنـــــزلنـــــافي جـــــوارك
وطلبنـــــــــا قـــــــــرب دارك
وسرينـــــافي الـــــديـــــاجـــــي
فهـــــدانـــــاضـــــوءنـــــارك
فتـــــدارك أمـــــرنـــــا اليـــــو
م بطـــــــــول متـــــــــدارك
وتفـــــردبـــــاغتـــــام الـــــ
ـــــشكر مـــــن غير مشـــــارك

قال العماد : وفي هـذه السنة خـرج نور الديـن إلى داريـا فـأعاد عمارة جامعها، وعمر مشهد أبي سليمان الداراني، وشتى بدمشق.

obeikandl.com

فصل

في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عمارة في قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين تقدّم بعضها يقول فيها:

صحبت به مصر وكانت قبله
تشكو سقاما لم يعن بطبيب
عجبا لمعجزة أتت في عصره
والدهر ولاد لكل عجيب
ردّ الاله به قضية يوسف
نسقا على ضرب من التقريب
جاءته أخوته ووالده إلى
مصر على التدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم بدولة
قد ساعدتك رياحها بهبوب

قال العماد: لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وسبده ولبده، وخيم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جدده وسار في حفظ الله فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حق قدومه ما وجب وركب لاستقباله، وزاد اقبال البلاد باقباله، ولما عزم على الرحيل إلى مصر شرع في تفريق أملاكه وتوفير ماله في شركة على اشراكه، وما استصحب شيئاً من موجوده، وجعله نهبة لجوده.

قلت: ووقف رباطا داخل الدرب الذي بقرب العوينة بباب البريد.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه، وسحب للعلى على روض الرضى سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء بعسكره وخيامه، وأرهف للجد في الجهاد حد اعتزامه، ثم أقام بعد توديعه والوفاء بحق تشييعه إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جنده وحاضره، وعب بحره وماج زاخره، ثم توجهنا إلى بلاد الكرك مستهل شعبان، ونزلنا أياما بالبلقاء على عمان، وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين فورد الخبر أن الفرنج قد تجمعوا ووصلوا إلى ماعين فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنتنا وبالله نستعين، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم أدركنا المراد، وملكنا البلاد، فرحلنا إليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا ، وقالوا: رحيلهم عن الحصن قد حصل وهو مقصودنا وعاد نور الدين إلى حوران، فخيم بعشترا وصام رمضان.

وقال ابن الاثير: كان سبب حصر نور الدين الكرك أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سار عن دمشق إلى مصر، فسير نور الدين معه عسكراً فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودّة ما لا يعدّ، فخاف نور الدين عليهم فسار إلى الكرك ، فنزل عليه وحصره، وسار نجم الدين ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهنفرى وفليب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج في وقتهما في المقدّمة إليه، فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقي الفرنج وكانا في مائتي فارس وألف تركبلي ومعهم من الراجل خلق كثير فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه، ونزل بعشترا وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه.

وقال ابن شدّاد : أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور

القصة مشاكلة ماجرى للنبي يوسف الصديق عليه السلام، فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه وقال:يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت كفؤ له فلاينبغي أن تغير موقع السعادة ، فحكمه في الخزائن بأسرها، وكان رحمه الله كريما يطلق ولا يرد، ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي،أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير اقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمله رسالة منها:« وهذا أمر يجب المبادرة إليه ليحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أهم أمنيته» وسار نجم الدين وأصحبه نور الدين هدية سنية للملك الناصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج ، ولم يجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا، وأظهر السلطان من برّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه قوص وأسوان وعيذاب، وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي ألف وستة وستين ألف دينار، وسار شمس الدولة إلى قوص وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار، وكان السلطان قبل اقطاعها شمس الدولة قد سير رسلان بن دغمش لجباية خراجها، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هميم، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة، وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين علي وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى وتصدّق بما بهر به العقول،

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم قد تقدّم بعضها:

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه
وكل أبنائه شهب فلا أفلوا
جاؤوا كيعقوب والأسباط إذ وردوا
على العزيز من أرض الشام واشتملوا
لكن يوسف هذا جاء أخوته
ولم يكن بينهم نزع ولا زلل
وملكوا أرض مصر في شبا ختته
ومثلها الرجال مثلهم نزل

فصل

في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الاثير: وفي ثاني عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدّها وأعظمها كان بالشام فخربت بعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وغيرها، وتهدّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والاحصاء، فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها وخلوّها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص، ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماه ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما قلعة بارين، فانها مع قربها منهم لم يبق من سورها

شيء البتة، فجعل فيها طائفة صالحة مع العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهاراً، ثم أتى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لايقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها وعمر جميع البلاد وجوامعها وأخرج من الأموال مالا يقدّر قدره.

وأما بلاد الفرنج خذلهم الله تعالى فإنها أيضا فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضا يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر.

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين ولحصن الأكراد وصافيتا والعريمة وعرقا في بحر الزلازل غرقى لاسيما حصن الأكراد فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليه فيه دحور وثبور، فشغلهم سوءهم عن سواه وكل اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النفوس من رعبها وتسلت القلوب عن كربها الابمادهم الكفار من أمرها، وعراهم من ضرّها، فلقد خصتهم بالأمض الأشق، وأخذتهم الرجفة بالحق ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأضحوا للردى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون(فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون)(١١٦)

ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها:

هـــل لعـــا في الهوى مـــن الأسر فـــادي
ولســـاري ليـــل الصبـــابـــة هـــادي
جنبـــونـــي خطـــب البعـــاد فسهـــل
كـــل خطـــب ســـوى النـــوى والبعـــاد
كـــت في غفلـــة مـــن البين حتـــى
صـــاح يـــوم الاثيـــل بـــالبين حـــادى
قـــد حللتـــم مـــن مهجتـــي في الســـويـــدا
ومـــن مقلتـــي محل الســـواد
وبخلتـــم مـــن الـــوصـــال بـــاسعـــا
في أمـــا كنتـــم مـــن الأجـــواد
وبعثتـــم نسيمكـــم يتـــلافـــا
ني فعـــاد النسيـــم مـــن عـــوّادي
سمتمـــوني تجلـــدا واشتيـــاقـــا
ومحال تجمـــع الاضـــداد
ابقـــاء بعـــد الاحبـــة يـــا قلـــ
ـــبي مـــا هـــذه شروط الـــوداد
ذاب قلبـــي وســـال في الـــدمـــع لما
دام مـــن نـــار وجـــده في اتقـــاد
مـــا الـــدمـــوع التـــي تحدرهـــا الاشـــ
ـــواق إلا فتـــائت الأكبـــاد
حبـــذا ســـاكنـــو فـــؤادي وعهـــدي
بهم يسكنـــون سفـــح الـــوادي
أتمنـــى بـــالشـــام أهلي ببغـــدا
دوأيـــن الشـــآم مـــن بغـــداد
مـــا اعتيـــاضي مـــن حبهـــم يعلـــم الله
تعـــالى إلا بحـــب الجهـــاد
واشتغـــالي بخـــدمـــة الملـــك العـــا
دل محمـــود الكـــريـــم الجواد

أنـــا منـــه على سريـــر سروري
راتـــع العيـــش في مـــراد مـــرادي
قيـــدتنـــي بـــالشـــام منـــه الايـــادي
والأيـــادي للحـــر كـــالأقيـــاد
قـــد وردت البحر الخضم وخلفـ
ـــت ملـــوك الـــدنيـــا بـــه كـــالثماد
هـــو نعـــم الملاذ مـــن نـــائب الدهـــ
ـــر ونعـــم المعـــاذ عنـــد المعـــاد
جـــل زرء الفـــرنـــج فـــاستبـــدلـــوا منـــ
ـــه بلبس الحديد لبس الحداد
فـــرّق الـــرعـــب منـــه في أنفـــس الكفـــ
ـــار بين الأرواح والأجساد
سطـــوة زلـــزلـــت بسكـــانها الأر
ض وهـــدت قـــواعـــد الأطـــواد
أخـــذتهم بـــالحق رجعـــة بـــأس
تـــركتهـــم صرعـــى صروف الغـــوادي
خفضـــت مـــن قـــلاعهـــا كـــل عـــال
وأعـــادت تـــلاعهـــا كـــالـــوهـــاد
أنفـــذ الله حكمـــه فهـــو مـــاض
مظهـــر سر غيبـــه فهـــو بـــادي
آيـــة أثـــرت ذوي الشرك بالملـــ
ـــك وأهـــل التـــوحيـــد بـــالارشـــاد
والاعـــادي جـــرى عليهـــم مـــن التـــد
مير مـــا قـــد جـــرى على قـــوم عـــاد
أشركـــت في الهلاك بين الفريقيـــ
ـــن دعـــاة الاشراك والالحاد
ولقـــد حـــاربـــوا القضـــاء فـــأمضـــى
حكمـــه فيهـــم بغير جـــلاد

والالـــه الـــرؤوف في الشـــام عنـــا
دافـــع لطفـــه بـــلاء البـــلاد

قال العماد ومنها معنى متبكر أبتدعته في الزلزلة وهو:

وبحق أصيبت الأرض لما
اشتكـــت مـــن مقـــام أهـــل الفســـاد
علمـــت أنها جننـــت فعـــراها
حـــذراً مـــن سطـــاك شبـــه ارتعـــاد

قال العماد: وفي هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النورية، كنت مقرظا للفضائل الشهرزوريه، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد ابن قـــاضي قضاة الشام كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري ، وكان كمال الدين قد علق به تنفيذ الأحكام وإليه أمور الديوان ، وهو ذو المكانة والامكان في بسط العدل والاحسان ومحيي الدين ولده ينوب عنه في القضاء بحلب وبلدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها، وبحماه وحمص من بني الشهرزوري قاضيان وهما حاكمان متحكمان، وكان هذا محيي الدين من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب وشعر، وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النظامية منذ سنة خمس وثلاثين، والمدرس شيخنا معين الدين سعيد ابن الرزاز وكان مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه بعلمه معلما مذهب الطراز، وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اصطباره، وخلبت أفكاره، فكتبت إليه قصيدة مطلعها:

لو كان من شكوى الصبابة مشكيا
لعداعلى عدوى الصبابة معديا
مات الرجاء فإن أردت حياته
ونشوره فارج الإمام المحييا

أقضى القضاة محمد بن محمد
من لست منه للفضائل محصيا
قاض به قضت المظالم نحبها
وغدا على آثاره من معفيا
ياكاشفاً للحق في أيامه
غرراً يدوم لها الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عند عثارها
لو لم تجدك لطود حلمك مرسيا
رجفت لسطوتك التي أرسلتها
نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا
وتظلمت من شرهم فتململت
عجل إجازتها عليها مبقيا
أنفت من الثقلاء فيها إذ رمت
أثقالها ورأتك منها ملجيا
حلب لها حلب المدامع مسيل
إن لاقت الخطب الفظيع المبكيا
وبعدل نور الدين عاود أفقها
من بعد غيم الغم جواً مصحيا
أضحى لبهجتها معيداً بعدما
ذهبت وللمعروف فيها مبديا
لأموره متدبراً لشتاتها
متألفاً لصلاحها متوليا
فالشرع عاد بعدله مستظهرا
والحق عاد بظله مستذريا
والدهر لاذ بعفوه مستغفرا
مما جناه مطرقاً مستحييا

فصل

في غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل

قال ابن الأثير: كان شهاب الدين محمد بن الياس بن ايلغازي بن أرتق صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره وهم مائتا فارس إلى الخدمة النورية، وهو بعشترا، فلما وصل إلى اللبوة، وهي من أعمال بعلبك ركب متصيداً فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الاسلام وذلك سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا وصبر الفريقان لاسيما المسلمون لأن ألف فارس منهم لاتصبر لحملة ثلاثمائة فارس من الفرنج، وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج وعمهم القتل والأسر فلم يفلت منهم إلاّ من لايعتد به (ولو تواعد تم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً)(١١٧) وسار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين فركب هو وعسكره إلى لقائه، واستعرض الأسرى ورؤوس القتلى فرأى فيها رأس مقدم الاسبتارية صاحب حصن الأكراد وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ولدينه عندهم ولأنه شجى في حلوق المسلمين، وكذلك أيضا رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج فإزداد سرورا ولله الحمد.

قال: وفيها في شوال توفي الملك قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، وكان لما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكي بن مودود، وهو أكبر أولاده وأعزهم عليه وأحبهم إليه، وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زنكي لأنه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخدمه وتزوج ابنته، وكان عزيزه وحبيبه، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته لأموره، فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد

الديـن في أموره عـن أمر عمـه فيعزلـه ويبعده فـاتفق هـو والخاتون ابنـة حسام الدين تمرتـاش زوجة قطب الدين، فردّوه عـن هذا الرأي، فلما كان الغد أحضر الأمـراء واستحلفهم لـولده سيـف الديـن غازي، وتـوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة، وكـان تام القامة كبير الوجه أسمـر اللون واسع الجبهـة جهوري الصـوت، وكانـت ولايتـه إحدى وعشريـن سنة وخمسـة أشهـر ونصف، ولما تـوفي استقر سيـف الـدين غـازي في الملك ، ورحـل عماد الديـن إلى عمه نور الـدين شاكيـا ومستنصرا وكان عبد المسيح هو يتولى أمور سيف الدين ويحكم في مملكتـه ، وليس لسيف الدين من الأمر إلاّ اسمه لأنه في عنفوان شبابه وعزة حداثته.

قال: وهـذه حادثة تحث على العدل، كـان من جملة أعمال جزيـرة ابن عمر قرية تسمى العقيمة مقابـل الجزيرة من الجانب الشرقي يفصل بينهما دجلة لها بسـاتين كثيرة بعضها تمسح أرضه ويـؤخذ على كل جريـب من الأرض التـي قد زرعـت شيء معلوم، وبعضهـا عليه خـراج ولا مساحـة عليه، وبعضهـا مطلق منهما، فـالممسوح منها لايحصـل لأصحابـه منه إلا القدر القـريب، وكان لنـابها عدّة بساتين فحكـى لي والدي قال: جـاءنا كتاب فخر الديـن عبد المسيح إلى الجزيرة، وأنا حينئذ أتـولى ديوانها يأمر بأن تجعل بسـاتين العقيمة كلها ممسوحة، فشق ذلـك علي لأجل أصحابها ففيهـا نـاس صالحون ولي بهم أنـس وهـم فقـراء، فـراجعته وقلـت لـه : لاتظـن أني أقول هـذا لأجل ملكـي لا والله، وإنما أريـد أن يدوم النـاس على الدعاء للمـولى قطب الدين، وأنـا أمسح ملكي جميعه، قـال : فأعاد الجواب بـأمر المسـاحة، ويقـول : تمسح أولا ملكـك ليقتدي بـك غيرك، ونحن نطلق لـك ما يكون عليه، فشرع النواب يمسحون، وكـان بالعقيمة رجلان صـالحان بيني وبينهما مـودّة اسم أحدهما يـوسف والآخـر عبادة، فحضرا عنـدي وتضررا مـن هـذه الحال وسـألاني المكـاتبـة في المعنـى، فأظهرت لهما كتـاب عبد المسيح جوابـاً عن كتابي فشكراني وقـالا: وأيضا

تعـود تراجعـه، فعاودت القـول فأصرّ على المسـاحة فعـرّفتهما الحال، فلما مضى عـدّة أيام عـدت يوما إلى داري وإذا هما قـد صادفـاني على الباب فقلت لنفسي:عجبـاً لهذين الشيخين قد رأيـا مراجعتي وهما يطلبـان مني مـالا أقدر عليـه، فقلـت لهما: والله إني لاستحيي منكما كلما جئتما في هـذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيـف هو فقالا: صدقـت ولم نحضر إلاّ لنعرفك أن حاجتنـا قضيت، فظننـت أنهما قد أرسـلا إلى الموصل مـن يشفع لهما، فـدخلت إلى داري وأدخلتهما معـي وسألتهما عـن الحال كيـف هو ومـن الذي سعى لهما، فقالا:إن رجـلاً من الصالحين الأبدال شكونا إليـه حالنا، فقال: قد قضيت حاجة أهل العقيمة كلهـم، قال: فوقع عندي من هذا، ولكـن تـارة أصدّقهما لما أعلـم مـن صـلاح أحـوالهما، وتارة أعجـب مـن سلامة صـدورهما كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانـه واقعاً لاشك فيه، فلما كان بعد أيـام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمـر فيه باطلاق مساحة العقيمة، واطـلاق كل مسجون وبالصدقة، فسألـت القاصد عن السبب فـأخبرنا أن قطب الـدين شديـد المرض قال: فأفكـرت فى قولهما، وتعجبت منه ثم توفي بعد يومين من هذا.

قال: ورأيـت والدي إذا رأى أحـد الرجلين يبـالغ في إكـرامه ويحترمـه ويقضي أشغاله واتخذهما صديقين.

قال: وكان قطـب الدين من أحسـن الملوك وأعفهم عن أمـوال رعيته، محسنا إليهم، كثير الانعام عليهم، محبـوباً إلى صغيرهم وكبيرهم حليما عن المذنبين سريع الانفعال للخير، حـدّثني والدي قال: استدعاني يـوما وهو بالجزيـرة وكنت أتولى أعمالها فـلامني في بعـض الأمر فقلت: أخـاف من الاستقصاء لـو دعي على بعض هـؤلاء الملوك وأومأت إلى أولاده لكـانت شعرة منه تسـاوي الدنيا وما فيهـا، ولنا مواضع تحتمـل العمارة لو عمرت يتحصل منها أضعـاف هذا، فقال : جزاك الله خيراً لقـد نصحت وأدّيت

الأمانة فاشرع في عمارة هذه الأماكن، ففعلت وكبرت منزلتي عنده، ولم يزل يثني عليّ.

قال: وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه، لقد صبر من نوابه زين الدين، وجمال الدين وغيرهما على مالم يصبر عليه سواه، وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة والانجاد له بنفسه وعسكره وأمواله، حضر معه المصاف بحارم وفتحها وفتح بانياس، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف، وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض، وكان يبغض الظلم وأهله ويعاقب من يفعله.

قال: وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد زنكي سيف الدين ونور الدين وقطب الدين، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وحسن السيرة وعمارة البلاد والرفق بالرعية إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها أذكر قول الشاعر:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التي يسري بها الساري

قلت: وقرأت بخط الشيخ عمر الملاء رحمه الله في كتاب كتبه إلى بعض الصالحين، وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب الموصل وقال فيه:« يا أخي لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته أطلت وأضجرت، غير أني أذكر لك ما خصه الله به من الأخلاق الصالحة، هو من أكثر الناس رحمة، وأشدّهم حياء وأعظمهم تواضعاً وأقلهم طمعاً، وأزهدهم في الظلم وأكثرهم صبراً، وأبعدهم غضباً، وأسرعهم رضا، وهو من هذه الأخلاق على حدّ أحبه أنا محبة لاأقدر أصفها، وبيني وبينه إخاء ومزاورة يزورني وأزوره».

فصل

قال ابن الاثير: ولما بلغ نور الدين وفـاة أخيه قطب الدين، وملك ولده سيف الديـن بعده واستيلاء عبد المسيح واستبداده بـالأمور، وحكمه على سيف الـدين أنف مـن ذلك، وكبر لديه وشـق عليه، وكان يبغـض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبـالغة في إقامة السياسة، وكان نـور الديـن رحمه الله لينـا رفيقـا عادلاً فقـال: أنـا أولى بتـدبير بني أخـي وملكهم، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم.

- ٨٠٢١ -

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

وقصد الرقة فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ثم سلمها على شيء اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها وسار إلى الخابور فملكة جميعه ثم ملك نصيبين ، وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدة، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر، واجتمعت عليه العساكر وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من الموصل، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه ، وأشاروا بترك سنجار فلم يقبل منهم وأقام حتى ملك سنجار، وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى، ودجلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة ، وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك صاحب بلاد الجبل وأذربيجان وأران وغيرها يستنجده، فأرسل ايلدكز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته وكان بسنجار فسار إلى الموصل، وقال للرسول : قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك، فلاتدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من اصلاحهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت نصف بلاد الاسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد

الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان واقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك وقال: لاسبيل إلى ابقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام فإني لم آت لآخذ البلاد من أولادي إنما جئت لاخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك وسلمت الموصل إليه فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى، وسكن القلعة، وأقر سيف الدين غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كمشتكين، وجعله دزدارا فيها ، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة، ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين، وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوري بالموصل، فبني وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً، وسار إلى الشام فقيل له:إنك تحب الموصل والمقام بها، وتراك أسرعت العود؟ فقال: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً أنني هاهنا لاأكون مرابطاً للعدوّ وملازماً للجهاد، ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه اقطاعا كثيراً.

وقال العماد: استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقة، وقال لي: قد آنست بك وأمنت إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض لايبلغ فيه غيرك الغرض فتمضي إلى الديوان العزيز جريدة وتؤدّي عني

رسالة سديدة سعيدة، وتنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي ومغنى طريفي.وتالديّ وأنا كبيره ووارثه والذي له حديثه وحادثة، فامض وخذ لي أذنا فإني أعدّ كل جارحة لما أخاطب به أذنا، وأمثل ما يصلني من المثال لدفع كل مكروه ركنا.

وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسيرني إلى الرحبة في رجال مأموني الصحبة، وسرت منها على البرية غربي الفرات بخفير من بني خفاجه، فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سنجار فأخذها وسلمها إلى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي .

قال: ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد، واستوضح فيها الجدد، ودل هناك في دجلة على مخاضه، وكان ذا أخلاق وهمم مرتاضه، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ماظنّ مستصعباً، وسهل الله لنا ذلك ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تركماني قدامنا، وهو يقطع دجلة تارة طولاًوتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيط واحد لانميل يميناً ولايساراً ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عبرنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي برحالنا وأثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية ذلك اليوم حتى تم عبور القوم، ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها، وخيمنا على تل توبه فاستعظم أهلها تلك النوبة، وما خطر ببالهم أنا نعبر بغير مراكب، وأنا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون مقهورون محسورون، وانقطعت عنهم السبل من الشرق، وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق ، وبسط العطاء وكشف الغطاء وتكلم في الصلحة والمصالحة الوسطاء، ومدّ الجسر وقضي الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه ومثلوا بناديه، وأقرّ سيف الدين غازيا على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء، ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً وجدّد مناشير أهل المناصب

وتوقيعات ذوي المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما، وأمر باسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فمنه:« قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فسحقا للسحت، ومحقا للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضى الرب، ويقصي من محل القرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدّمنا باسقاط كل مكس وضريبه في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبه، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة مظلمة فظيعة، وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، واطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظوره، خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولا يتنا جور جائر جارياً ، ولا عمل لايكون به الله راضياً، ايثاراً للثواب الأجل على الحطام العاجل، وهذا حق لله قضيناه، وواجب علينا أدّيناه، بل هي سنة حسنة سنناها، ومحجة واضحة بيناها، وقاعدة محكمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها ».

فصل

قال العماد:وكان بالموصل رجل صالح يعرف بعمر الملاء،سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها، وكل ما عليه من قميص ورداء وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره، وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيف قراه ذلك المريد، وكان ذا معرفة بأحكام القرآن والأحاديث النبوية، وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، ويتيمنون ببركته، وله كل سنة دعوة يحتفل بها في أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل،

ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك المحفل، وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره، وكانت بالموصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلاّ من ذهب عمره ولم يتم على مراده، فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها ورفع بنيانها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات ، ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، ورتب فيه خطيباً ومدرّساً، وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي من أصحاب الإمام محمد بن يحيى، فسأله أن يكون مدرّساً في ذلك الجامع، وكتب له به منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب إربل إلى الخدمة النورية بالموصل، وكان دخولهم إياها في بحبوحة الشتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدة منها:

مايمنع الخادم من قصده الـ
ـخدمة غير الطرق والوحل
كأنما وصلكم مقطع
مايهتدى فيه إلى وصل
وكل معروف بها منكر
كما تراه ضيق السبل
وكل من حل بها لا يرى
في زمن الخصب سوى المحل
ومذ دخلناها حصلنا بها
كرها على خرج بلا دخل
أصعب ما تلقاه من أهلها
قول بلا أهل ولا سهل
وكنت أهواها ولكنني
لقيت منها كل مايسلي

وأنـــت مـــن أصبـــح احســـانـــه
حليـــة هـــذا الزمـــن العطـــل

قال: وعاد نور الـدين إلى سنجار فأعاد عمارة أسوارهـا، ثم أتى حرّان وقـد اقتطعهـا عن صـاحـب الموصـل هي ونصيبين والخابـور والمجـدل، ووصل حلب في خامس رجب.

قال ابن شدّاد: دخل حلب في شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته.

قـال العماد: وفـوّض القضـاء والحكـم بنصيبين وسنجـار والخابـور إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولى بها نوابه وحكم فيها أصحابه.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما صارت الموصـل إلى سيف الدين بن أخي نـور الديـن، كان قـد استولى عليـه وتـولى أمر البلـد رجل يقـال له عبـد المسيح ، كان نصرانياً فـأسلم، وقيل إنه كان باقيـاً على نصرانيته وله بيعة في داره وتتبع أربـاب العلم والـدين فشتتهـم وأبعدهـم، وآذى المسلمين، فبلغ نو الدين ذلك، وكتب له قصص في ذلك ، فسار ونزل على الموصل من جانـب الشط، والشط بينه وبينهـا وقال: لاأقاتل هـذه البلدة وأهتك حرمتها وهـي لولدي، وراسل سيف الـدين وقال له: أنـا ليس مقصودي البلد وإنما مقصـودي حفظ البلد لك، فـإنه قد كتب إليّ في عبـد المسيح كـذا كذا ألـف قصة بما يفعـل مـع المسلمين، وأنا مقصـودي أزيل هـذا النصراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبـد المسيح يديـر البلد ويدور فيـه والأمر إليه، وبـذل الصلح لنور الـدين، فقـال نور الـدين أنا قـد جئت ولا بـدّ لي من دخـول البلد فقال: نعم لاتدخل إلا من باب السرّ فقال نور الدين : ما أدخل إلا من باب السرّ، فجـرت بين نور الدين وبين ابـن أخيه مراسـلات إلى أن علم

أن نيته صالحة فصالحه في السر وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم ودمك قد راح وأنت غافل، فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدين فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه بين يديه وقال له: أنت قد صالحت عمك وقد عملت ما عملت في حفظ بلدك ومالك طاقة بمقابلة نور الدين، فالله الله في دمي فقال له: مالي طاقة بدفعه عنك ولكن عليك بالشيخ عمر الملاء، فقال: والله لو مضيت إليه لم يفتح لي لعلمه بما جرى مني في حق المسلمين، ولكن تسير أنت إليه فأنفذ لسيف الدين إليه واستحضره، وكان معتكفاً فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه ، فوقف بين يديه يبكي فالتفت إليه الشيخ عمر وقال: من يعادي الرجال يبكي مثل النساء فقال له: قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دمي، فقال : أنت آمن على دمك فقال:على مالي، فقال : وعلى مالك، فقال: وعلى أهلي؟ فقال: وعلى أهلك، وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذ، فقال سيف الدين لعمر الملاء: تخرج تحلف نور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه، فقال له عمر: الناس يعلمون حسن عقيدتك فيّ، وقد خرجت في كذا وكذا، وناوله النسخة التي تتعلق بسيف الدين فقرأها وناولها لابن أبي عصرون فقال: نسخة جيدة، فقال له الشيخ عمر الملاء: أي شيء تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة، فقال إذا حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى، فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك يشير إلى أن نور الدين كان يجري منه أيمان في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيد عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حسن عقيدتك فيّ وأن قولي مسموع عندك وقد خرجت إليك ولابد لي من ضيافة، فقال : كيف لي بذلك وأنت لاتأكل طعامي

ولا تقبل مني شيئاً؟ فقال تحلف لي بهذه النسخة فوقف عليها وتغير وجهه، وقال: أنا ماجئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منه، فقال الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين، فقال: قد أمنته على نفسه، فقال: وعلى أهله، فقال: ومن أهله؟ فقال: نصارى، فقال: أمنتهم، فقال وعلى ماله، فقال: ومن أين لهذا الكلب مال هذا مملوك لنا، فقال: قد أعتق وماله له وهو اليوم كان صاحب الموصل، قال: قد أمنته على ماله، فحلف له على ذلك جميعاً واستقرّ الصلح، وخرج سيف الدين إلى خدمة نور الدين فوقف بين يديه فأكرمه نور الدين، وكان وصله خلعة أمير المؤمنين، فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها وانتقل إلى جانب الشط الآخر ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جداً، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مدّة، ورتب أمورها وولى فيها كمشتكين، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له: جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به، وتركت الجهاد، وقتال أعداء الدين، فاستيقظ من منامه، وسار سحرة ذلك اليوم، ولم يلبث ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه رحمه الله .

فصل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي بالله ونور الدين مخيم بشرقي الموصل بتل توبه، وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، وكان مولد المستنجد بالله مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وستة أيام ، وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العباس ، وهذا العدد له بحساب الجمل اللام والباء، وفيه يقول بعض الأدباء:

أصبحـــت لبنـــي العبـــاس كلهـــم
إن عـــدّدت بحســـاب الجمـــل الخلفـــا

وكان أسمر تام القامة، وطويـل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعيـة، كان عادلاً فيهم كثير الرفق بهم ، وأطلـق من المكوس كثيراً ، ولم يترك بالعراق مكسـا، وكان شديداً على أهل العيث والفسـاد والسعاية بالناس.

قـال ابن الاثير: بلغنـي أنه قبـض على إنسـان كان يسعـى بالنـاس ، ويكتب فيهم السعايات، فأطال حبسه، فحضر بعض أصحابه يشفع فيه وبـذل عنه عشرة آلاف دينـار فقـال لـه: أنا أعطيـك عشرة آلاف دينـار، وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس.

وفي أيامه تـوفي شيخ الشيوخ اسماعيل بن أبي سعد، وصـار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ، وذلك سنة إحدى وأربعين.

وفي سنـة ثمان وأربعين تـوفي محمد بـن نصر القيسراني، وأحمد بـن منير الشـاعران، وقـد تقـدّم ذلك. وفي سنـة تسـع وأربعين تـوفي الحكيم أبـو الحكم الشـاعر الأنـدلسي، وفي سنة إحدى وخمسين تـوفي الوأواء الشـاعر الحلبي، وفي سنـة ثلاث وستين تـوفي الشيخ أبـو النجيب الصـوفي الفقيه الواعظ.

قـال العماد: وجاءنـا رسـل دار الخلافـة مبشرين بخـلافـة المستضيء، واتفق ذلـك يوم عبور دجلـة، وركب يوم النـزول على تل توبـة في الأهبة السوداء واليد البيضاء، وذلك بمرأى ومنظـر من أهل الموصل الحدباء، ثم أرسل الشيـخ شرف الدين بـن أبي عصرون إلى بغداد نـائباً عنه في خـدمة الإمام، ومما نظمه العماد فيه:

قد أضاء الزمان بالمستضيء
وارث البرد وابن عم النبيّ
جاء بالحق والشريعة والعد
ل فيا مرحبا بهذا المجيّ
فهنيئاً الأهل بغداد فازوا
بعد بؤس بكل عيش هنيّ
ومضيّ إن كان في الزمن المظـ
ـلم فالعود في الزمان المضيّ

وله من قصيدة أخرى:
لهفي على زمن الشباب فإنني
بسوى التأسف عنه لم أتعوض
نقضت عهود الغانيات وإنها
لو لا نقاء شيبتي لم تنقض
يا حسن أيام الصبا وكأنها
أيام مولانا الإمام المستضي
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها
والطلعة الغراء والوجه الوضي
قسم السعادة والشقاوة ربنا
في الخلق بين محبه والمبغض

ومنها:
فضل الخلائف والخلائق بالتقى
والفضل والافضال والخلق الرضي
فبأنعم أمير المؤمنين بدولة
ما تنتهي وسعادة ما تنقضي

قال: ووصل نور الدين رحمه الله تعالى إلى دمشق، وأدّى فرض الصيام، وخرج بعد العيد إلى الخيام، وأخرج سرادقه إلى جسر الخشب،

وسرنا إلى عشترا، ثم ذكر العماد هنا سرية صاحب البيرة الأرتقي باللبوة، وقد مضت في أخبار سنة خمس وستين فثم ذكرها ابن الاثير.

فصل

فيما جرى بمصر في هذه السنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في النصف من المحرم دار العزل، مدرسة للمالكية، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، ثم خرج إلى الغزاة وأغار على الرملة وعسقلان، وهجم ربض غزة، ثم رجع إلى القاهرة ، ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فأشفق عليها وأحب أن يجتمع بها شمله فخرج في النصف من ربيع الأول وكانت بإيلة قلعة في البحر قد حصنها أهل الكفر فعمر لها مراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال وركبها الصناع هناك ، وشحنها بالرجال وفتح القلعة في العشر الأوّل من ربيع الآخر واستحلها واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعدد والعدد ، وحصنها بأهل الجلاد والجلد، واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سمت القاهرة ، ودخلوا في السادس والعشرين من جمادى الأولى إليها، وسار إلى الاسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها، وهي أوّل دفعة سار إليها في أيام سلطانه، وعمّ أهلها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها، وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه، وهو ابن أخي صلاح الدين منازل العز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية، واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الأملاك ووقفها عليها، وفي النصف من جمادى الآخرة أغار

شمس الدولة أخو السلطان بالصعيد على العربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحجاج يوسف بن الخلال، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كبر، وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدّة حياته يكرم عهده ويكفله، وقال في الخريدة: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره وجامع مفاخره وكان إليه الانشاء، وله قوّة على الترسل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره وأضرّ ولزم بيته إلى أن تعوّض منه القبر، ومن شعره:

يا أخا الغرّة حسب الدهر من
عظة المغرور ما أصبح يبدي
تؤثر الدنيا فهل نلت بها
لحظة تخلص من هم وكد (١١٨)

قلت: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في أوّل كتابه المسمى بالوشي المرقوم في حل المنظوم قال: حدّثني عبد الرحيم بن علي البيساني رحمه الله بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غضاً طرياً، وكان لايخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً، وكان من العادة أنّ كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشذا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع، قال: فأرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضيًا بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وهو أحد خلفائها، وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلا يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان، ومثلت بين يديه، وعرفته من أنا وما طلبي رحب بي وسهل ثم قال: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات، فقلت ليس عندي شيء سوى أني

أحفظ القرآن العزيز، وكتاب الحماسة، فقال: وفي هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته، فتردّدت إليه، وتدرّبت بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن احل شعر الحماسة فحللته من أوّله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرّة ثانية فحللته.

وقال ابن أبي طي: في هذه السنة شرع السلطان ـــ يعنى صلاح الدين ـــ في عمارة سور القاهرة لأنه كان قد تهدّم أكثره وصار طريقاً لايرد داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقراقوش الخادم، وقبض على القصور وسلمها إليه ، وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية، وقطع من الآذان حي على خير العمل، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها.

قلت: وقد وقفت على كتاب فاضلي وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قوص وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السابق أوّل الكتاب : (فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)(١١٩)

وفيه: « توجهنا من بركة الجب يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأوّل ووصلنا بتاريخ السابع والعشرين من الشهر المذكور والعساكر بالسهل والوعر منتظمه، والهمم على السهل والصعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المعلمه قد أيدتها جنود السماء المسومة، وصابحنا الدير يوم الأربعاء بقتال جعل كلّ من في حصن الدير راهبا ونصبنا عليه منجنيقاً لايزال بشهاب القذف ضارباً، فلما تعالى النهار ملكنا ربضه، وأطلقنا فيه النيران. ورملنا الرجال بالدم. وأرملنا النسوان ، وزحفنا إلى أبراجه وهي

أبراج قد استعدت للبلاء جلباباً، فجعلنا لكل واحد جورة مفردة وبابا، وسرحنا إليهم رسل المنايا من النشاب، وقصدنا أحد الأبراج والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب. وتقدّمت إليه نقابة الجلبية فباتت ليلتها تساوره وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره، وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه، وتيسر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود ، فلم يكن إلاّ مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً، وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القبضة وعجز من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذاب بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يوم تبلى السرائر، وطهر الأرض منهم بالدم المائر ، فلما كان بكرة الجمعة وردتنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزة في فارسه وراجله ورامحه ونابله وحشود دياره وجنود أنصاره، فركبنا مستبشرين بزحفة، موقنين بحتفه. ولقيناه فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطراد ، وأحدقت به احداق الأغلال بالأجياد وانتظرت حملته التي كانت لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً، ولم يزل يخاتل، ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يطاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لاتني في عقابه حتى تحصل في الدير هو وخيله ورجله، ولم يبق له من ملك الشام إلا ما وطئته رجله. فناصبناه الحصار في ليلة السبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه والوقوف عليه ، لعله يبرز ويبارز ويخرج ولا يحاجز. فخرست غماغمه واستذابت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضين الله سبحانه لامغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته، من الله متقرّبين. وواجهنا غزة بعساكرنا

المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بكراً لم تفترعها الحوادث. وحصانا لم يطمثها أمل طامث. هي معقل الديوية الذين هم جمرة الشرك، وداهية الأفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد، وفتحناها من عدّة جوانب،ووطئناها وإذا هي كأمس الذاهب، فألقت إلينا أفلاذ كبدها وذخيرة يدها، فمن بين مواش تخرب البلاد التي منها خرجت، وخيول مسوّمة كأنها لركوبنا أسرجت وألجمت، وحوامل أثقال وزوامل خففت عن عساكرنا وفرّجت، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت، وأساري المسلمين فكوا من القيد والقد، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدّة الجهد. فأما الرؤوس المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإن الفضاء الفضي تعصفر من دمائهم وتذهب، وجرى منها مابه اضطرم وقد الجحيم وتلهب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاولة وينتقل، فهل ترى لهم من باقيه. أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاويه. وعراصاً من سكانها خالية. قد بقيت عبرة للعابر وذكرى للذاكر. وموعظة سارة للمسلم مرغمة للكافر، ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك خذله الله راجين أن يحمله الثكل على الإقدام، ويخرجه حرّ النار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقتل أصحابه قد جرحه، فبتنا عليه والالسنة بفراره تعيره. واستتاره يقرّعه ويقرره. وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسب قد أثقل المقاتلة ونصر الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسلامة لصغير عسكرنا وكبيره شامله. والعدوّ قد غزي في عقره وعقر، وأذل في دار ملكه وأحتقر ووصلنا إلى مستقرّ سلطاننا في يوم الإثنين الحادي عشر من الشهر المذكور فاستقبلنا من مولانا صلوات الله عليه تشريفه، واستقبال ركابه ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومجابه ما عظمت به النعم، وجلت ، وزالت به وعثاء الطريق وتجلت ، وجادتها سماء انعامة التي لم تزل تجودنا واستهلت.

قلت: ومن قصيدة لعمارة في مدح صلاح الدين أوّلها:

(فؤاد بنار الشوق والوجد محرق) يقول فيها:

لعل بني أيوب إن علموا بما
تظلمت منه أن يرقوا ويشفقوا
غزوا عقر دار المشركين بغزة
جهاراً وطرف الشرك خزيان مطرق
وزاروا مصلى عسقلان بأرعن
يفيض إناء البرّ منه ويفهق
وكانت على ما شاهد الناس قبلهم
طرائق من شوك القنا ليس تطرق
وما عصمتهم منك إلا معاقل
تأنوا على تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى
بوادره سور عليهم وخندق
وأخربت من أعمالهم كل عامر
يمرّ به طيف الخيال فيفرق
أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ
ـخليل فأبشر أنت غاز موفق
وهيجت للبيت المقدّس لوعة
يطول بها منه إليك التشوّق
تنشق من ملقاك أعظم نفحة
تطيب على قلب الهدى حين تنشق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه
قريباً وإلاّ رائد ومطرّق
هو البيت إن تفتحه والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق

- ٨٠٣٧ -

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فاستفتحها صلاح الدين رحمه الله باقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر، وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتهاء مادام لها من العصر.

وذكر العماد أيضا في أخبار سنة إثنتين وسبعين كما سيأتى أن الذي خطب بمصر لبني العباس أولاً هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، وذكر ذلك أيضا ابن الدبيثي في تاريخه، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتاب له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره.

قال ابن الاثير : كان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر وزال المخالفون له، وضعف أمر العاضد، وهو الخليفة بها ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه، واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا إمتثال أمر نور الدين، وكان قد دخل إلى مصر انسان أعجمي يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالموصل كثيراً فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: أنا أبتدي بها ، فلما كان اول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح

الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه آله وأصحابه بذلك، وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننغض عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم.

قال: ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره، وعلى جميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش، وهو خصي لحفظه وجعله كاستاذدار العاضد فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الأيوان في القصر وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والاماء فاعتق البعض ووهب البعض واباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه فسبحان من لايزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور.

قال: ولما أشتد مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين، فظن أن ذلك خديعة فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه.

قلت: أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد، وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، قال: وأحضرنا يعني أولاده وهم جماعة صغار فأوصاه بنا فالتزم اكرامنا واحترامنا رحمه الله، وأما ندم صلاح الدين فبلغني أنه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السلطان للعزاء وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في اجمال أمره والتوديع له إلى قبره، ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائته، وكان مذ نافق مؤتمن الخلافة وقتل صرف من هو زمام القصر وعزل، ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر، وجعله زمامه واستنابه مقام نفسه، وأقامه، فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلاّ بمرأى منه ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، ووهت المعاقد، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد.

قلت: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار برجوان في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيبا، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها، وأبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نقص عددهم وقلص مددهم، ثم عرض من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدة والعديد، والطريف والتليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهنّ، وجمع الباقيات فوهبهنّ وفرقهنّ وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه ولخواص مماليكه واوليائه من أخائر الذخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدرة اليتيمه، والياقوتة العالية الغالية القيمه، والمصوغات التبريه، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية والصواني

الصينيه، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النضارية، والكرائم واليتائم والعقود والتمائم والنقود والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدر والياقوت ، والحلي والوشي، والعبير والحبير والوثير والنشير، والعيني واللجيني، والبسط والفرش، وما لا يعد احصاء، ولا يحد استقصاء، فوقع فيها الفناء، وكشف عنها الغطاء، وأسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق ولبيس وسحيق وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول، واستمر البيع فيها مدّة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصادرين.

ونقلت من ديوان العماد بخطه قال: ولما وصل خبر موت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوما بالأمر في ليلة عاشورا، سنة سبع وستين، بعد الخطبة بها للمستضيء بالله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات فذكر قصيدة منها:

تـــوفي العـــاضـــد الـــدعـــيّ فما
يفتـــــح ذو بـــــدعـــــة بمصر فما
وعصر فـــرعـــونها انقضـــى وغـــدا
يـــوسفهـــا في الأمـــور محتكما
وانطفـــأت جمرة الغـــواة وقـــد
بـــاح مـــن الشرك كلما اضطـــرمـــا
وصـــار شمـــل الصـــلاح ملتئما
بها وعقـــد الســـداد منتظما
لما غـــدا معلنـــا شعـــار بنـــي الـــ
ـــعباس حقـــا والبـــاطـــل اكتتما
وبـــات داعـــي التـــوحيـــد منتصرا
ومـــن دعـــاة الاشراك منتقما

وظـل أهـل الضـلال في ظلـل
داجية من غيابة وعمى
وارتبـك الجاهلـون في ظلـم
لما أضـاءت منـابـر العلما
وعـاد بـا لمستضيء ممتهـدا
بنـاء حـق قـد كـان منهـدمـا
واعتلـت الـدولـة التـي اضطهـدت
وانتصر الـديـن بعـد مـا اهتضما
واهتـز عطـف الاسـلام مـن جـذل
وافتر ثغـر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجـه الهدى فـرحـا
فليقـرع الكفـر سنـه نـدمـا
عـاد حـريـم الاعـداء منتهـك الـ
ـحمى وفيء الطغـاة مقتسما
قصـور أهـل القصـور أخـربها
عـامـر بيـت مـن الكمال سما
أزعـج بعـد السكـون سـاكنهـا
ومـات ذلا وأنفـه رغما

ومن كتاب فاضلي عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد، على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضا، في بعض السنين: « كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره، ودين الولاء مشروع، وعلم الجهاد مرفوع، وسؤدد السواد متبوع، وحكم السداد بين الأمة موضوع، وسبب الفساد مقطوع ممنوع، وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشاما، وصارت البلاد بل الدنيا والشهر بل الدهر حرما حراماً، فاضحى الدين واحداً بعد ما كان أديانا، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلاّ صما وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعه، والمذلة في شيع الضلال شائعه، ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا

أمرهم بينهم شيعا، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا، وكذبوا بالنار، فعجلت لهم نار الحتوف، ونثرت أقلام الظبا حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ آينهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وقتلا، وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم، ولا خفاء عن المجلس الصاحبي أن من شد عقد خلافه وحل عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقر إلى أن يشكر ما نصح وقلد مافتح ويبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح، وتأتية التشريفات الشريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتلبى دعوته بما أقام من دعوه، وتوصل غزوته بما وصل من عزوه، وترفع دونه الحجب المعترضة وترسل إليه السحب المروضه فكل ذلك تعود عوائده وتبدو فوائده بالدولة التي كشف وجهه لنصرها وجرد سيفه لرفع منارها والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها وطلب النجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لايصال ملطفاته، وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر وقام بالأمر قيام من بر. واستفتح بلباس السواد الأعظم الذي جمع الله عليه السواد الأعظم أملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف في عقبه».

ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الإربلي من قصيدة في مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى:

مليك من القوم الذين رماحهم
دعائم هذا الدين في كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصراً مؤزراً
به عز في الآفاق كل موحد

وهم قهروا غلب الفرنج ببأسهم
فدانوا لهم بالرغم لا عن ودد
وردوا إلى البيت المقدس نوره
وقد كان في ليل من الشرك أسود
وهم سهلوا سبل الحجيج وآمنوا
بها الركب خوف الكافر المتشدد
وقد ركبت فرسانه بحر إيلة
يخوضون في بحر من الكيد مزبد
وهم رجعوا مصراً إلى دعوة الهدى
بعزم ورأي في العظائم محصد
وهم شيدوا ركن الخلافة بالذي
أعادوه من حق طريف ومتلد
وهم شرفوا قدر المنابر باسمها
وذكر منوط بالرسول محمد
وهم وهبوا عز الممالك واكتفوا
بسمراء العوالي والعلاء المشيد
فسل عن ظباهم يوم حطين كم قضت
بمر مراد الله في كل أصيد
وضعف حديث العدل والبأس والندى
إذا كان عن أيامهم غير مسند

وقال ابن أبي طي الحلبي: قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين والحاحه على صلاح الدين في إقامة الخطبة بمصر للعباسيين، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك، ولما ولى ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نو الدين فيه، وألح نور الدين على صلاح الدين في طلبه، وأفضى به الأمر إلى أنه اتهم صلاح الدين وشنع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك، ولما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك، فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر

بعد وأموره مضطربة واعداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السودان وغيرهم وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلا فسدت أحواله، فلما أوقع السلطان الملك الناصر بالسودان والأرمن،ونكب أمراء المصريين وقطع أخبازهم، وترك أجناده في دورهم، ثم قطع اقطاع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور، ووكل بها وبمن فيها قراقوش الخادم، وخلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ، ثم شرع وأبطل من الأذان «حي على خير العمل»، وأنكر على من يتسم بمذهبهم والانتساب إليهم، فلما رأى أموره مواتيه وأعداؤه قليلون،شرع حينئذ في الخطبة لبني العباس، ولما عول على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعة من أصحابه، وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يحضر الخطيب إليه ويأمره بما يختاره، وإنما فعل الملك الناصر ذلك، ووكل الأمر إلى غيره استظهار أو خوفاً من فادحة ربما طرأت أو عدو ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك، ولما حصل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب، وقال له: إن ذكرت هذا المقيم بالقصر ضربت عنقك، فقال: فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العباسي، فلما صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد، لم يذكر أحداً لكنه دعا للائمة المهديين، وللسلطان الملك الناصر، ونزل فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة، قال: لمن خطب؟ قيل له: لم يخطب لأحد مسمى، قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمى، واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية، قيل إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهم حتى مات، وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعللا

خمسة أيام، ومات، وقيل أنه امتص فص خاتمه، وكان تحته سم فمات، ولما اتصل موته بالملك الناصر، قال : لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه يرفع اسمه من الخطبة، فحكي أن القاضي الفاضل قال للسلطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت أشار إلى أن العاضد قتل نفسه، وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المارستاني في سيرة ابن هبيرة الوزير، قال: إن من عجيب ما جرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر، والأنور منهما مسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، ويهب أدنى نسيم فيحرّكها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرأون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا فقالوا: قد استبدل الناس بامامهم قال: وكان الرجل استقبل القبلة، وهو يدعو الله أن يجعله إماما برّاً تقياً، واستيقظ الرجل وبلغ هذا المنام ابن هبيرة الوزير إذذاك ببغداد، فعبر المنام بأن الإمام الذي بمصر يستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أوّل مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده، وقيلت في ذلك الزمان أشعار في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان، وكان حاجب ابن هبيرة قالها حين سمع تأويله المنام:

ليهنك يا مولى الانام بشارة
بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الاعادي بهمة
تقاصر عنها السمهريّ المثقف
بعثت إلى شرق البلاد وغربها
بعوث من الآراء تحيي وتتلف

فقامت مقام السيف والسيف قاطر
ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
ملكت به أقصى المغارب عنوة
وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ليهنك يا مولاي فتحاً تتابعت
إليك به حوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها
من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة
يعاف التقى والدين منهم ويأنف
فطهرها من كل شرك وبدعة
أغرّ غريرٍ بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا
تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن دانت ليوسف مصره
وكانت الى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف
وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبي طي: يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبي صلى الله عليه وسلم وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذ، وقاله على سبيل الفأل ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشابهته خلقاً وخلقاً وعفة
وكل عن الرحمن في الأرض يخلف

وجرى الفأل في البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

قلت: وذكر ابن المارستاني في السيرة المذكورة ، قال: وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزير ابن هبيرة نور الدين بن زنكي يحثه على التعرّض لمصر والبعث إليها، واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر، وقدومه هارباً منه إلى نور الدين، فحرّك ذلك ما كان تخمر في نفسه مما كان كاتبه به ابن هبيرة، فاستطلع من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين فشرحها وأوضحها، فسير إليها أسد الدين كما سبق ذكره.

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه وعظمت الأذية بذلك وجلى أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به إلى الاقطار، وتحدّث به السمار، ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمرّ بها يقول فيها: (أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الاسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية، والاسكندرية ومصر والقاهرة وسائر الأطراف الدانية والقاصية، والبادية والحاضرة وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفه، وعلى افتتاحها موقوفه، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضيه، والأقدار في الأزل بقضاء أرائنا ونجاز مواعدنا قاضيه حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها، وطالما مرت عليها الحقب الخوالي، وآبت دونها الأيام والليالي، وبقيت مائتين وثمانين (١٢٠) سنة ممنوة بدعوة المبطلين. مملوة بحزب الشياطين. سابغة

ظـلالها للضلال مقفـرة المحل إلا مـن المحـال. مفتقرة إلى نصرة مـن الله يملكها. ونظـرة ستدركهـا. رافعة يدهـا في أشكائهـا متظلمة إليـه ليكفل بإعدائهـا على أعدائها، حتى أذن الله لغمتهـا بالإنفراج ولعلتها بـالعلاج. وسببـت قصـد الفرنـج لها وتـوجههـم إليهـا طمعا في الاستيـلاء عليهـا، واجتمع داءان الكفـر والبدعة، وكـلاهما شديـد الروعة، فملكنـا الله تلك البـلاد، ومكن لنـا في الأرض وأقدرنـا على مـاكنا نـؤمله في إزالـة الالحاد والرفـض، من اقـامة الفرض، وتقـدّمنا إلى مـن استنبناه أن يستفتـح باب السعادة، ويستنجح باب مالنا من الارادة، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالـك. ويورد الأدعياء، ودعـاة الإلحاد بها المهالـك» وهو كتاب طـويل اختصرت منه الغرض وهو هذا.

قـال: وسار شهـاب الديـن بـن أبي عصرون إلى جهة بغـداد، ولم يترك مـدينـة إلاّ دخلها بهذه البشـارة الجليلـة القـدر، وقـرأ فيها هـذا المنشـور العظيم الخطـر والذكـر حتى وصـل إلى بغداد فخـرج الموكب إلى تلقيـه، وجميع أهـل بغداد مكرمين لخطير وروده، معظمين لجليل مـوروده، ونثرت عليه دنانير الإنعام، وحبي بكـل احسان وإكرام، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين كما سيأتى ذكره.

وقال العماد: كان صلاح الـدين لايخرج عن أمر نور الديـن ويعمل له عمل القـوي الأمين، ويرجـع في جميع مصـالحه إلى رأيه المتين، وقـد كان كاتبه نور الدين في شوّال سنـة ست وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصعبـة، وافتراع بكر هـذه القضية وفـرع الـرتبة، وأيقـن أن أمره متبـوع، وقوله مسموع، وحكمه مشروع، ونطقـت بذلك قبل التمام ألسن الخواص والعوام، فسير نور الدين شهاب الدين أبا المعالي المطهر ابن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة مـا تقدّم له بها من الإشاعة، وأمرني بـانشاء بشـارة عامـة تقرأ في سـائر بلاد الاسـلام، وبشارة خـاصة للديوان العزيـز بحضرة الإمام في مدينة السلام، ثم ذكـر نسخة الكتابين،

- ٨٠٤٩ -

ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أوّلها:

قد خطبنا للمستضيء بمصر
نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا النصرة العضد العا
ضد والقاصر الذي بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء، قال العماد في كتاب الخريدة: قصدت بالعضد والعاضد المجانسة، ونصرة وزير الخليفة كنصرته، ثم قال:

وأشعنا بها شعار بني العباس
فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعيّ يدعو ثبورا
وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخط
بة للهاشميّ في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم اللـ
ـه وجلت عن كل عدّ وحصر
فاغتدى الدين ثابت الركن في مصـ
ـر محوط الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العا
دل نور الدين الكريم الأغر
وبنو الأصفر القوامص منه
بوجوه من المخافة صفر
عرف الحق أهل مصر وكانوا
قبله بين منكر ومقرّ
قل لداعي الدعيّ حسبك فاللـ
ـه أقرّ الحقوق خير مقرّ

هـــو فتـــح بكـــر ودون البرايـــا
خصنـــا الله بـــافتراع البكـــر
وحصلنـا بـالحمـد والأجـر والنصـــ
ـــر وطيب الثنـا وحسـن الـذكـر
ونشرنـــا أعـــلامنـــا الســـود قهـــراً
للعـدى الـزرق بـالمنـايـا الحمـر
واستعـدنـا مـن أدعيـاء حقـوقـاً
يـدعـى بينهـم لـزيـد وعمـر
والـذي يـدعـي الإمـامـة بـالقـاهـر
ة انحـــط في حضيـــض القهـــر
خـانـه الـدهـر في منـاه ولا يطـــ
ـــمع ذو اللـب في وفـاء الـدهـر
مـــا يقـــام الإمـــام إلاّ بحـــق
مـــا تحاز الحسنـــاء إلا بمهـــر
خلفـــاء الهدى سراة بنـــي العبـــ
ـــاس والطيبـــون أهـــل الطهـــر
بهم الـديـن ظـافـر مستقيـم
ظـاهـر قـوّة قـوي الظهـر
كشمـوس الضحـى كمثـل بـدور الـــ
ـــتم كـالسحب كـالنجـوم الـزهـر
قـد بلغنـا بـالصبر كـل مـراد
وبلـــوغ المراد عقبـــى الصبر
ليس مثـري الـرجـال مـن ملـك المـا
ل ولكنما أخـــو اللـــب مثـــري
ولهذا لم ينتفـــع صـــاحـــب القصر
وقـد شـارف الـدثـور بـدثـر
دام نصر الهدى بملـك بنـي العبـــ
ـــاس حتـى يقـوم يـوم الحشر

قال العماد في ديوانه، ونقلته من خطه قال: ووصل الخبر بأن الخطبة قامت في الاسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشري شهر رمضان لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وإقامة شعار بني العباس بها، فقلت ونحن نزول بجسر الخشب من دمشق في عاشر شوال وكتبت بها إلى بغداد، فذكر هذه القصيدة.

وقال في البرق: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين بن صندل، وهو من أكابر الخدم المقتفوية من ذوي الروية والهمة القوية، وتولي استاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدين عضد الدين عنها، فأكرم نور الدين بارسال مثله، إليه، وعوّل في هذا الأمر المهم عليه، وهو أكرم رسول ، وصل فأنجح الأمل، وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكملاً معظماً مجملاً بأهبته السوداء العراقية، وحلله الموشيه، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل، وعين يوم يحضر فيه الرسول، ونصوا على من يحضر في مجلس نور الدين ، واغفلوا ذكر العماد، فطلبه نور الدين لما حضروا، وقام لقيام الرسول له لما حضر، وقصد أن يعرفهم منزلته عنده، وناوله الكتاب ليقرأه، قال: فتناوله مني الموفق بن القيسراني خالد، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريته ومامايته وتركته يقرأ وأنا أردّ عليه وأرشده في التلاوة إلى مالا يهتدي إليه حتى أنهاه وأنا على افتياته عليّ لا أنهاه، فأعجب نور الدين صمتي وسمتي، وأحمد مني فضل التأني والتأتي واجتاب الأهبة، ولبس الفرجية فوقها، وتقلد مع تقلد السيفين طوقها، وخرج وركب من داخل القلعة وهو حال بما عليه من الخلعة، واللواء منشور، والنضار منثور، والمركبان الشريفان أحدهما مركوبه، والآخر بحليته مجنوبه.

قال: وسألت عن معنى تقليده السيفين فقيل لي هما للشام ومصر، وللجمع له بين البلادين، وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى

الميدان الأخضر، ثم عاد شريف المفخر، جميل المنظر ، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمصدر، لبيقا بالأعظمين السرير والمنبر، وكان وزن الطوق مع اكرته ألف دينار من الذهب الأحمر، وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً رائعاً رائقاً لجماله وكماله لائقاً، لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل وأجمل وأكمل، فسير تشريفه برمته إليه بمصر ليحظى به، وسير أيضاً بخلع من عنده يكرم بها أصحابه، ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وأنس من السعادة الدائمة بقبسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية، يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ورايات سود وأهب عباسية للخطباء في الديار المصرية، فسيرت إلى صلاح الدين، ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء والحمد لله على ما أنعم وأولى ووهب وأعطى.

قال ابن أبي طي: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة، أمر بالقبض على القصور، وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر لأن شاور كان قد ضيعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام، وكتب وجواهر، ومن عجيب ما وجد فيه قضيب زمرد طوله شبروكسر هو قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طبل للقولنج، ووجد فيه أبريق عظيم من الحجر المائع ، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر، فأما قضيب الزمرد فإن السلطان أخذه وأحضر صانعاً ليقطعه فأبى الصانع قطعه فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرقه السلطان على نسائه، وأما طبل القولنج فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره لأنه ضرب به فحبق ، وأما الابريق فانفذه السلطان إلى بغداد، واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في

موضع في خارج القصر، جعله برسمهم على الانفراد، وقرر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم، وفرق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى إنقراضهم، واستعرض من بالقصر من الجواري والعبيد والعدّة والعديد والطريف والتليد، فأطلق من كان منهم حراً وأعتق من رأى اعتاقه، ووهب من أراد هبته، وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع بالقصر مدّة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير، وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير، حيث شغف بحبها، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك، ومنها حصل ما حصل من الكتب، كذا أخبرني جماعة من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد، واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة، وهو قصر عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري، ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء مكان دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتورا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورا.

قال: وحكي أن الشريف الجليس، وهو رجل كان قريبا من العاضد، يجلس معه، ويحدّثه عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور، وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف : حدّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم؟ قال: نعم طلبني العاضد يوماً وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه، وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثل أقبيتكم وقلانس كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير المؤمنين ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأخذت ذخائر القصر ففصلها، كما سبق، ثم قال: ومن جملتها الكتب فإني أخذت منها جملة في سنة إثنتين وسبعين، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين ألف مجلدة مؤبدة من العهد القديم مخلده، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي واقتطعه التعدّي، وكانت كالميراث مع أمناء الايتام يتصرّف فيها بشره الانتهاب والالتهام، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام، وتقاسم الخواص بدور القصر وقصوره، وشرع كل من سكن في تخريب معمورة، وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرت سكناه فيه، وخطب لإمامنا المستضيء في قوص وأسوان والصعيد والقاصي والداني والقريب والبعيد، وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر، وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم املكها أمراءه، وخص بها أولياءه، وباع أماكن، ووهب مساكن، وعفى الآثار القديمة، واستأنف السنن الكريمة.

وقال ابن الاثير : لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره، اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً، وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة مالم يكن عند ملك من الملوك، قد جمع على طول السنين وممر الدهور، فمنه القضيب الزمرد، طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت وغيرهما، ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد.

فصل

ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس، ومات العاضد، انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الاسلام بمصر بانقراضها الذلة، واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه، وفيهم يقول العرقله:

أصبح الملك بعد آل علي
مشرقا بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو
م ومصر تزهو على بغداذ
ماحووها إلا بحزم وعزم
صرصليل الفولاذ في الفولاذ
لاكفرعون والعزيز ومن كا
ن بها كالخصيب والاستاذ(١٢١)

يعني بالاستاذ كافور الاخشيدي، وقوله بعد آل علي يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، وأظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون فملكوا البلاد، وقهروا العباد، وقدد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ولانسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد

هذا من نسل القدّاح الملحد المجوسي، وقيل كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سليمة من بلاد الشام، وكان حدّاداً و عبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله، وزعم أنه علوي فاطمي، وادعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العلوية بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه، وهو ما قدّمنا ذكره، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي، وبنى المهدية بالمغرب، ونسبت إليه، وكان زنديقا خبيثا عدوّاً للاسلام، متظاهراً بالتشيع، متستراً به، حريصاً على إزالة الملة الاسلامية، قتل من الفقهاء والمحدّثين والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده اعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم وضلالتهم: (والله متم نوره ولو كره الكافرون (١٢٢)) ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة، وإلاّ أسروه والدعاة لهم منبثون في البلاد يضلون من أمكنهم إضلاله من العباد، وبقي هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة، وفي أيامهم كثرت الرافضة، واستحكم أمرهم، ووضعت المكوس على الناس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام، كالنصيرية والدرزية والحشيشية نوع منهم، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم، وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة إلى أن منّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي، وتقدّمه مثل صلاح الدين، فاستردّوا البلاد وأزالوا هذه الدولة عن أرقاب العباد، وكانوا أربعة عشر مستخلفا، ثلاثة منهم بإفريقية وهم الملقبون: بالمهدي، والقائم ، والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون: بالمعز، والعزيز ، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، يدّعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطمية والدولة

العلوية، وإنما هي الدولة المجوسية واليهودية الباطنية الملحدة، ومن قباحتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها، وخطب عبدهم جوهر الذي أخذ لهم الديار المصرية وبنى لهم القاهرة المعزية بنفسه خطبة طويلة قال فيها: « اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوّة وسليل العترة الهادية المهدية معد أبي تميم، الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وسلفه المنتجبين الأئمة الراشدين»، كذب عدوّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولافي ذريته الباقين، والعترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل رحمة الله عليهم، وعلى مثالهم من الصدر الأول وقد بين نسبهم هذا وأوضح محالهم وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الاسلام جماعة ممن سلف من الائمة والعلماء، وكل متورع منهم لايسميهم إلاّ بني عبيد الأدعياء، أي يدّعون من النسب بما ليس لهم، ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب فإنه كشف في أول كتابه المسمى بكشف أسرار الباطنية عن بطلان نسب هؤلاء إلى علي رضي الله عنه، وأن القدّاح الذي انتسبوا إليه، دعي من الأدعياء ممخرق كذاب، وهو أصل دعاة القرامطة لعنهم الله، وأما القاضي عبد الجبار البصري فإنه استقصى الكلام في أصولها، وبينها بيانا شافيا في آخر كتاب تثبيت النبوّة له، وقد نقلت كلامهما في ذلك وكلام غيرهما في مختصر تاريخ دمشق في ترجمة عبد الرحيم بن الياس ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس، وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الاسلام، وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقفّ الشعر عند استماعها، ولكن لابد من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لمن لعله يعتقد إمامتهم، ويخفى عنه محالهم ولم يعلم قباحتهم ومكابرتهم، وليعذر من أزال دولتهم، وأمات بدعتهم، وقلل عدّتهم، وأفنى أمتهم، وأطفأ جمرتهم، ذكر عبد الجبار أن الملقب بالمهدي لعنه الله كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم،

وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين، وأكثر من الجور واستصفاء الأموال، وقتل الرجال ، وكان له دعاة يلون الناس على قدر طبقاتهم فيقولون لبعضهم: « هو المهدي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه» ويقولون لآخرين: « هو رسول الله وحجة الله». ويقولون لأخرى: « هو الله الخالق الرازق» لاإله إلا الله وحده لاشريك له تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً، ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه وزاد شره على شر أبيه أضعافا مضاعفة وجاهر بشتم الأنبياء فكان ينادي في أسواق المهدية وغيرها: « ألعنوا عائشة وبعلها، ألعنوا الغار وما حوى» اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين، وألعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين، وارحم من أزالهم، وكان سبب قلعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم، وأصلهم سعيرا، ولقهم ثبورا، واسكنهم النار جمعا، واجعلهم ممن قلت فيهم: (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا (١٢٣)).

رجعنا إلى الأصل،وبعث إلى أبي طاهر القرمطي المقيم بالبحرين وحثه على قتل المسلمين، واحراق المساجد والمصاحف، وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مخلداً، الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدّم ذكره وسلخه وصلبه، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشرذ مهم خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد، وقام بعده ابنه الملقب بالمعز، فبث دعاته فكانوا يقولون هو المهدي الذي يملك الأرض، وهو الشمس التي تطلع من مغربها، وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم، واحتجب عن الناس أياماً، ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلات قلوب العامة والجهال منه، وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة المعزية، واستدعى بفقيه الشام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملي، ويعرف بابن

النابلسي فحمل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فسلخ حياً وحشى جلده تبنا وصلب رحمه الله تعالى.

قلت: وفي أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر والشوارع والطرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب، ثم أمر بقلع ذلك، وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأمكنة العليا منقوراً في الحجر، ودلني أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جدّد ذلك الباب وأزيل الحجر، وفي أيامهم طوف بدمشق برجل مغربي نودي عليه: هذا جزاء من يحب أبابكر وعمر، ثم ضربت عنقه، وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء مثل : قطع لسان، أبي القاسم الواسطى أحد الصالحين، وكان أذن ببيت المقدس وقال في: أذانه حي على الفلاح، فأخذ وقطع لسانه، ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابلسي الحافظ أبو القاسم في تاريخه، وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلاّ محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدّتهم مع قلة عدّتهم ، فإن عدّتهم عدّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيفا وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانيا وستين سنة، فالحمد لله على ما يسر من هلكهم، وإبادة ملكهم، ورضي الله عمن سعى في ذلك وأزالهم، ورحم من بيّن مخرقتهم وكذبهم ومحالهم، وقد كشف أيضا حالهم الامام أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن نصر الشاشي في كتاب « الرد على الباطنية» وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده، ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدة سماها الإيضاح عن دعوة القدّاح أوّلها:

حي على مصر إلى خلع الرسن
فثم تعطيل فروض وسنن

وقال: لو وفق ملوك الاسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو

الباطنية الملاعين، فإنهم من شر أعداء دين الاسلام، وقد خرجت من حدّ المنافقين إلى حد المجاهرين لما ظهر في ممالك الاسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافه فرض جهادها، وضرر هؤلاء أشدّ على الاسلام وأهله من ضرر الكفار، إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض.

قلت: ثم إني لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم، فأفردت كتابا لذلك سميته « كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد»، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به فإني بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم، ووقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقب بالعزيز ثاني خلفاء مصر فبين فيه أصولهم أتم بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضائحهم وما كان يصدر منهم من انواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة وبالله التوفيق ، وما أحسن ما قال فيهم بعض من مدح بني أيوب بقصيدة منها:

ألستم مزيلي دولة الكفر من بني
عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية
مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفراً يظهرون تشيعا
ليستروا شيئاً وعمهم الجهل

أما ما فعله هؤلاء من الانتساب إلى علي رضوان الله عليه، والتستر بالتشيع قد فعله جماعة من القرامطة، وصاحب الزنج الخارج بالبصرة وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عرف من سيرهم من وقف على أخبار الناس، وكلهم كذبة ، في ذلك، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام

والجهال واستتباعهم لهم واستجلا بهم إلى دعوتهم بذلك البلاء، ويفعل الله ما يشاء، ولا يغتر بأبيات الشريف الرضي في ذلك، وقد حصل الجواب عنها في كتاب الكشف بوجوه حسنة، وبالله التوفيق، وقد صنف الشريف القائد [أخو محسن] الدمشقي رحمه الله كتاباً في أبطال نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفصل ذلك تفصيلا حسنا وأطنب في ذكر أخبار اخوانهم من القرامطة لعنهم الله تعالى.

فصل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شدّاد: واستمرت القواعد على الاستقامة وصلاح الدين كلما استولى على خزانة مال وهبها، وكلما فتح له خزائن ملك انهبها، ولا يبقى لنفسه شيئاً ، وشرع في التأهب للغزاة، وقصد بلاد العدوّ وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده، وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة، واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته، وكانت غزوة عرقة، فأخذها نور الدين، ومعه ابن أخيه في المحرم سنة سبع وستين.

وقال ابن أبي طي: جمع نور الدين عساكره، وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياما حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها وغنم الناس غنيمة عظيمة.

قال ابن الاثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوئين من الامتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا، فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه،

وراسل الفرنج في ذلك وأمرهم بإعادة ما أخذوه فغالطوه واحتجوا بأمور منها أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما، وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم، وكان رضي الله عنه لايهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردوا شيئاً، فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة، وبث السرايا في بلادهم بعضهم نحو انطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب ربضه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصني صافيتا وعريمة، فأخذهماعنوة، وكذلك غيرهما، ونهب وخرب وغنم المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بعرقة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب، وأما الذين ساروا إلى انطاكية فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدّد معهم الهدنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لايعطي الجزية حتى يلطم، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلما نهبت بلادهم وخرّبت أعادوها.

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم، لم يصل إلى كل إنسان إلا اليسير، وكان يحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه، وكان في الناس من يأخذ ما ليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة، وكان نصرانيا فلم يأخذ إلاّ ما عليه اسمه وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا السبب، وكان الذي حصل من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد إلينا سلم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه وأنا في غنى عنه، فلم يفعل فقال: خذ النصف وأنا النصف واجتهد به والدي فلم يفعل، فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام معه عدّة من الأثواب السوسية وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد

حضر اليوم، وسبب حضوره أن إنساناً فقاعيا من أهل تبريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه أن يردّها ــ يعني عليهم ــ و سأل عني وقد قصدني وهي معي، وحضر عندي الساعة وسلمها إليّ، وقال: قد تركت طريقي لتبرأ ذمتي، فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والدي الرجل وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالاً يتجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده، قال: وهذان الرجلان نادران في هذا الزمان.

فصل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعده نور الدين أن يجتمعوا على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرّم بالعزم الأجزم والرأي الأحزم، فاتفق للاجتماع عائق، ولم يقدّر للإتفاق قدر موافق، فلقي في تلك السفرة شدّة وعدم خيلا وظهرا وعدّة، وعاد إلى القاهرة في النصف من ربيع الأول.

قال ابن الاثير: في سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نو الدين من صلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج، والنزول على الكرك ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرّز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرّم، وكتب إلى نور الدين يعرّفه أن رخيله لايتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازما على قصد الكرك، فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح

الديـن إليه، فأتـاه كتابـه يعتذر فيه عـن الوصول بـاختلال البـلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنهـا، فعاد إليها فلم يقبل نور الـدين عذره، وكان سبـب تقاعـده أنّ أصحابـه وخـواصه خـوّفـوه من الاجتماع بنـور الديـن فحيث لم يمتثـل أمر نـور الدين شـق ذلك عليـه وعظم عنـده وعزم على الـدخول إلى مصر، واخـراج صـلاح الديـن عنهـا، فبلغ الخبر إلى صـلاح الـدين، فجمـع أهلـه وفيهم والـده نجم الـديـن وخالـه شهـاب الديـن الحارمي، ومعهم سـائر الأمراء وأعلمهم ما بلغـه من عزم نور الـدين على قصده وأخذ مصر منـه واستشارهم، فلم يجبه أحد منهـم بشيء، فقام ابن أخيه تقـي الديـن عمر، وقـال: إذا جاءنا قـاتلناه وصـددناه عـن البلاد، ووافقـه غيره مـن أهلـه، فشتمهـم نجـم الـديـن أيـوب، وأنكـر ذلـك واستعظمـه، وكان ذا رأي ومكـر وكيد وعقـل وقـال لتقي الـدين: اقعـد وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهـذا شهاب الدين خالك أتظنّ في هـؤلاء كلهم مـن يحبك ويـريد لـك الخير مثلنا؟ فقـال: لا، فقال نجـم الدين: والله لـو رأيت أنا وهذا خـالك نور الديـن لايمكننا إلا أن نترجل إليه ونقبـل الأرض بين يديـه، ولو أمـرنا بضرب عنقـك بالسيـف لفعلنا، فـإذا كنـا نحـن هكـذا كيـف يكون غيرنـا! وكـل مـن تـراه مـن الأمـراء والعساكر لو رأى نور الديـن وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النـزول وتقبيل الأرض بين يديـه، وهذه البـلاد له، وقد أقـامك فيها، فإن أراد عزلـك فأيّ حاجة به إلى المجيء يأمـرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خـدمته، ويولي بلاده من يـريد، وقال للجماعة كلهـم: قوموا عنا فنحـن مماليـك نور الديـن وعبيده ويفعـل بنا ما يـريده فتفـرّقوا على هذا، وكتـب أكثرهـم إلى نور الديـن بالخبر، ولما خلا نجـم الديـن أيوب بابنه صـلاح الدين قال لـه: أنت جاهل، قليـل المعرفة تجمع هـذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمـع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد، جعلـك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصـد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكـانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا

المجلس فسيكتبون إليه ويعرّفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أي حاجة إلى قصدي يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده والأيام تندرج، والله كل وقت في شان، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين رحمه الله الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

فصل

في الحمام

قال ابن الاثير: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته فكانت من حدّ النوبة إلى باب همذان لايتخللها سوى بلاد الفرنج، وكان الفرنج لعنهم الله ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده وأجرى الجرايات لها ولمربيها فوجد بها راحة كبيرة، كانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فإذا رأوا أوسمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر، وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرقعة من طائر إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك، حتى أنّ طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكبس العدوّ، ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد أمنوا لبعد نور الدين

عنهم، فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد.

وقال العماد: وكان نور الدين لايقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على الثغر، وصونا من الحيف ليحمي البلاد من العدوّ بالسيف، وهو متشوّف إلى أخبار مصر وأحوالها وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها، فرأى اتخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، وتقدّم إليّ بكتب منشور لأربابها وإعزاز أصحابها، وهو حينئذ بظاهر دمشق مخيم بوادي اللوان، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادون على أهل العدوان، وذلك في سابع عشر ذي القعدة من السنة، ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال: « هي برائد الانباء المخصوصات بفضيلة الالهام والايحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة الابطاء، والسابقات الهوج في الاهتداء، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامي والنافذات بنجح المرام بعود السهام إلى المرامي، وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعه. وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعه. وقد عم بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله في اهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكائدها ومكامنها طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنها الميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار من الأقطار، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكفار»

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة، وقد بلغني عن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف

وأخصر فقال: « الطيور ملائكة الملوك» يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء، مع فرط ما فيها من الأمانة لايتوهم من جهتها خيانة، فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف، رحم الله الجميع.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجل باسقاط المكوس بمصر، قرىء على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة عن السلطان الملك الناصر في أيام نور الدين رحمه الله، فهو كان الآمر وذلك المباشر، يقول فيه:« أما بعد فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكن لنا في الأرض، وحسنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض، ونصبنا له من إزالة النصب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حق جهاده،وزهدنا فيه من متاع الدنيا القليل،وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النقير والفتيل، وأولانا من شجاعة السماحة فيوما نهب ما اشتملت عليه الدواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النيل، فالبشائر في أيامنا تترى شفعا ووتراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، واسخطت الخيمة والصنايع، وأرضت المنبر والجامع، ولما تقلدنا أمور الرعية رأينا المكوس الديوانية بمصر والقاهرة أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرعية ضرّهم الذي يتوجه إليهم، ونضع عنهم أصرهم

والأغلال التي كانت عليهم، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعد يد حاسب، ولا قلم كاتب، فاستخرنا الله وعجلنا إليه ليرضى، ورأينا فرصة أجر لا تغض عليها بصائر الأبصار ولا يغضى وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار المتردّدين إليهما وإلى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها ووارداها، فسيرد التاجر ويسفر ويغيب عن ماله ويحضر ويقارض ويتجر براً وبحراً، مركبا وظهراً، سراً وجهراً، لايحل ما شدّة، ولا يحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عما أورده وأصدره، ولا يستوقف في طريقه، ولا يشرق بريقه، ولا يؤخذ منه طعمه، ولا يستباح له حرمه، والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة ألف دينار مسامحة لايشوبها تأويل ولا يتخوّنها تحويل ولا يعتريها زوال، ولا يعتورها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة ما قام دين القيمة، من عارضها ردّت أحكامه، ومن ناقضها نقض ذمامه، ومن ازالها زلت قدمه، ومن أحالها حل دمه، ومن تعقبها خلدت اللعنة فيه وفي عقبه، ومن احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الذي هو من حطبه، فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الأمر من صاحب سيف وقلم، ومشارف أوناظر، فليمتثل ما مثل من الأمر، وليمضه على ممر الدهر، مرضيا لربه، ممضياً لما أمر به.

وفيها توفي الشيخ أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقري النحوي، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى، وفيها ولد العزيز والظاهر ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين، وفيها في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نصر بن عبد الله الاسكندري المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب، ومولده بالاسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فيكون عمره نحو من خمس وثلاثين سنة.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ففيها توفي ملك النحاة الحسن بن صافي، وفيها ترتب العماد الكاتب مشرّفا بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الانشاء، قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعيا فطنا لوذعيا، لايشتبه عليه الأحوال، ولا يتهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سير منها عدّة من الأمتعة المستحسنة والآلات المثمنة، وقطع البلور واليشم والأواني التي لايتصور وجودها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البلخش أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقرن بها من اللآلى مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات بما لايجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار، فشكر نور الدين همته، وذكر بالكرم شميته، ووصف فضيلته وفضل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدّ به خلة الإقلال، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر، وبنا إلى الذهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر، وتمثل بقول أبي تمام

لم ينفق الذهب المربى بكثرته
على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والأمداد، فاستنزره وما استغزره، واستقل المحمول في جنب ما حرره وتروّى فيما يدبره، وأفكر فيما يقدّمه من هذا المهم ويؤخره.

قال ابن أبي طي: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقع، وجرد الموفق بن القيسراني وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام

أخبارها وارتفاعها، وأين صرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة، وعظم على نور الدين أمر مصر وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال، حدّثني أبي قال: لم يخف حال نور الدين في كراهية الملك الناصر، ولقد علم ذلك جميع الأجناد والأمراء، وتحدّث به العوام، ولاسيما حين أنفذ هذه الهدية واشتدّ بعد ذلك في مراسلته، وأنفذ ابن القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدّ من دخول مصر.

قال العماد: وكان نور الدين مذ ملكت مصر، وتوجه له فيها النصر، يؤثر أن يقرر له فيها مال للحمل يستعين به على كلف الجهاد، وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله، والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدي من نفسه بما يريده، وهو لايستدعي منه ولا يستزيده، فلما حمل من أخائر الذخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومفصله، تقدّم إلى الموفق خالد بن القيسراني أن يمضي ويطلب، ويقتضي ويعمل أيضا بالأعمال المصرية جزازه، ولا يبقى في نفوس ديوانه من أمرها حزازه، وأرسل معه الهدايا والتحف السنايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الانشاء، ثم كان من أمره ما سيأتى ذكره.

قال العماد: وخرج صلاح الدين في النصف من شوال ومعه الفيل

والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التي كان انتخبها من خزائن القصر، وهي معدودة من محاسن العصر، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين وقوبلت بالاحسان والتحسين، ووصلت الحماره، وكثرت لها النظارة، وأما الفيل فإنه وصل الينا في سنة تسع وستين ونحن بحلب في الميدان الأخضر، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تحفة الثياب والعود والعنبر، ثم سيره سيف الدين

إلى بغداد هدية للخليفة مع ما سيره معه من التحف اللطيفة، وسير نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا.

فصل

في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح بها وفرق عنها عربها، وخرب عماراتها، وشتت على أعمالها سراياه بغاراته، ووصل منه كتاب بالمثال الفاضلي:« سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل أعز الله سلطانه، ومد أبداً إحسانه، ومكن بالنصر إمكانه، وشيد بالتأييد مكانة، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم، ويفلل أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم، وأبر الاسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أن لايبقى في بلادهم أحد من العربان، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الايمان، ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم إلى أن صار العدوّ اليوم إذا نهض لايجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة ولايهتدي سبيلاً.» ثم ذكر باقي الكتاب.

قال ابن شدّاد: وهذه أوّل غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لايمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدوّ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد

عنها، ولم يظفر منها بشيء في تلك الدفعة وحصل ثواب القصد، وأما نور الدين فإنه فتح مرعش في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بهسنى في ذي الحجة منها.

وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهه بنور البشر قد سفر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكل منا يمدحها وبحبه يمنحها، وكل منا يطريها، فقال نور الدين أنا حب الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال فقلت:

ليس في الدنيا جميعا
بلدة مثل دمشق
ويسليني عنها
في سبيل الله عشقي
والتقى الأصل ومن
يتركها يشقى ويشقي
كم رشيق شاغل عنـ
ـه بسهم الغزو رشقي
وامتشاق البيض يغني
عنه بالأقلام مشقي

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبتيات في معنى الجهاد على لسانه

فقلت:

للغزو نشاطي وإليه طربي
مالي في العيش غيره من أرب
بالجهد وبالجهاد نجح الطلب
والراحة مستودعة في التعب

وقلت أيضا:

لاراحـــة في العيـــش ســـوى أن أغـــز
وسيفـــي طـــربـــا إلى الطلى يهتـــز

في ذل ذوي الكفـــر يكمـــون العـــز
والقـــدرة في غير جهـــاد عجـــز

وقلت أيضا:

أقسمـــت ســـوى الجهـــاد مـــالي أرب
والـــراحـــة في ســـواه عنـــدي تعـــب
إلا بـــالجدّ لا ينـــال الطلـــب
والعيـــش بـــلا جـــدّ جهـــاد لعـــب

قال: واتفق خروج كلب الروم اللعين في جنود الشياطين بقصد الغارة على زرا من ناحية حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان، ونزلوا في قرية تعرف بسمسكين (١٢٥) ، فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة إليهم ، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ثم نزلوا بالشلالة، ونزل نور الدين في عشترا، وقد سره ما جرى، فأنفذ سرّية إلى أعمال طبرية، واغتنم خلوّها، فأدلجت تلك الليلة وحمدت في شن الغارة غدوّها، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشجعان، وثبت من ثبته الايمان، حتى عبرت السرّيه، وانفصلت تلك القضية، ورحل نور الدين من عشترا، فنزل بظاهر زرا، قال العماد:

وكنت راكبا في لقائهم مع الملك العادل، وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى، فمدحته بقصيدة

عقـــدت بنصرك رايـــة الايمان
وبـــدت لعصرك آيـــة الاحســـان

يا غالب الغلب الملوك وصائد الـ
ـصيد الليوث وفارس الفرسان
يا سالب التيجان من أربابها
حزت الفخار على ذوي التيجان
محمود المحمود ما بين الورى
في كل اقليم بكل لسان
يا واحداً في الفضل غير مشارك
أقسمت مالك في البسيطة ثاني
أحلى أمانيك الجهاد وإنه
لك مؤذن أبداً بكل أمان
كم بكر فتح أولدته ظباك من
حرب لقمع المشركين عوان
كم وقعة لك بالفرنج حديثها
قد سار في الآفاق والبلدان
قمصت قومصهم رداء من ردى
وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم
بالذل في الأقياد والأشجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم
وسحبتهم هوناً على الأذقان
إذ في السوابغ تحطم السمر القنا
والبيض تخضب بالنجيع القاني
وعلى غناء المشرفية في الطلى
والهام رقص عوالي المرّان

وكان بين النقع لمع حديدها
نار تألق من خلال دخان
في مازق ورد الوريد مكفل
فيه بريّ الصارم الظمآن

غطى العجاج به نجوم سمائه
لتنوب عنها أنجم الخرصان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا
طرق الضلال ومركب الطغيان
يا خيبة الإفرنج حين تجمعوا
في حيرة وأتوا إلى حوران

ومنها:

وجلوت نور الدين ظلمة كفرهم
لما أتيت بواضح البرهان
وهزمتهم بالرأي قبل لقائهم
والرأي قبل شجاعة الشجعان
أصبحت للاسلام ركناً ثابتاً
والكفر منك مضعضع الأركان
قوّضت أساس الضلال بعزمك الـ
ـماضي وشدت مباني الايمان
قال أين مثلك في الملوك مجاهد
لله في سرّ وفي اعلان
لم تلقهم ثقة بقوّة شوكة
لكن وثقت بنصرة الرحمن
ما زال عزمك مستقلاً بالذي
لا يستقل بثقله الثقلان
وبلغت بالتأييد أقصى مبلغ
ما كان في وسع ولا إمكان
دانت لك الدنيا فقاصيها إذا
حققته لنفاذ أمرك داني
فمن العراق إلى الشام إلى ذرا
مصر إلى قوص إلى أسوان

obeikandi.com

لم تلـــه عـــن بـــاقـــي البـــلاد وإنما
الهاك فـــرض الغـــزو عـــن همذان
للـــروم والأفـــرنـــج منـــك مصـــائب
بـــالترك والأكـــراد والعـــربـــان
اذعنـــت لله المهيمـــن اذعنـــت
لـــك أوجـــه الامـــلاك بـــالاذعـــان
أنـــت الـــذي دون الملـــوك وجـــدتـــه
مـــلآن مـــن عـــرف ومـــن عـــرفـــان
في بـــأس عمـــر وفي بســـالـــة حيـــدر
في نطـــق قـــس في تقـــى سلمان
سير لـــو أنّ الـــوحـــي ينـــزل أنـــزلـــت
في شـــأنها ســـور مـــن القـــرآن
فـــاسلـــم طـــويـــل العمـــر ممتـــدّ المدى
صِـــافي الحيـــاة مخلـــد السلطـــان

وهـي قصيـدة طـويلـة وصـف فيهـا امـراءه الحاضريـن الجهـاد معـه ومدحهم.

فصل

في فتح بلاد النوبة

قال العماد: وفي جمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين بلاد النوبة وأراهم سطاه المرهوبة، وفتح حصنا لهم يعرف بابريم، وكان لايريم، وهي بلاد عديمة الجدوى، عظيمة البلوى، ثم رجع بالسبي وعاد به إلى أسوان، وفرق على أصحابه في الغنائم السودان.

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: وفيها اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة، وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين ملك بلاد مصر، وصاروا إلى أعمال الصعيد وصمموا على قصد أسوان وحصارها ونهب قراها وكان بها الأميركنز الـ ا رلة، فأنفذ يعلم الملك الناصر، وطلب منه نجدة، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكي، فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها، فاتبعهم الشجاع والكنز فجرت حرب عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم عظيم، ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد، وتمكنهم من بلاد الصعيد، فأنفذ الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة فسار قاصد بلادهم وشحن مراكب كثيرة في البحر بالرجال والميرة، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة، وسار إليها ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكراع والميرة، وخلص جماعة من الأسرى وأسر من وجده فيها، وهرب صاحبها، وكتب إلى السلطان بذلك، فأنشد السلطان أبو الحسن بن الذروي يهنيه بفتح ابريم قصيدة منها:

فقدّم العزم فاذا مبتداه
يقصر عن ملك الأرض منتهاه

واسحب ذيول الجيش حتى ترى
أنجمه طالعة عن دجاه
سواك من ألقى عصاه بها
قناعة لما استقرّت نواه
عليك بالروم ودع صاحب التا
ج إذا شئت وتور انشاه
فقد غمدت ابريم في ملكه
تبرم أمرا فيه كبت العداه
لابدّ للنوبة من نوبة
ترضى لسخط الكفر دين الإله
تظل من نوبة منسوبة
لعزمة كامنة في أناه
تكسو الغزاة القاطني أرضها
ما نسجت للحرب أيدي الغزاه
سودو تحمر الظباحولها
كأعين الرمد بدت للأساه
أولا فسمر يحميها القنا
مثل دنان بزلتها السقاه
لله جيش منك لا ينثني
إلا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنها
خيل وفرسان كمثل البزاه
أسادحرب فوق أيديهم
أساور الطعن فهم كالحواه
تقلدوا الأنهار واستلأموا الـ
ـغدران فالنيران تجري مياه

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص، وكان في صحبته أمير يقال له ابراهيم الكردي فطلب من شمس الدولة قلعة ابريم

فاقطعه إياها، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين، فلما حصلوا فيها تفرّقوا فرقا، وكانوا يشنون الغارة على بلاد النوبة، حتى برّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم، واتفق أنهم عدوّا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم ابراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة ابريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النوبة إليها وملكوها، وأنفذ ملك النوبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص، ومعه كتاب يطلب الصلح ومع الرسول هدية عبد وجارية، فكتب له جواب كتاب وأعطاه زوجي نشاب وقال: مالك عندي جواب إلا هذا، وجهز معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها، فسار الحلبي مع الرسول حتى وصل دنقلة وهي مدينة الملك، قال مسعود: فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه أدامهم، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال: خرج علينا يوماً وهو عريان قد ركب فرسا عريا، وقد التف في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر، قال: فأتيت فسلمت عليه، فضحك وتغاشى وأمر بي أن تكوى يدي، فكوى عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلا من الدقيق، ثم صرفني، قال: وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلاّ دار الملك فقط، وباقيها اخصاص.

فصل

في وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجه، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحجة، وحمل إلى منزله وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريما رحيما عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود، وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والإجلال والإعظام وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدّم ذكره، رحمهم الله.

قال القاضي ابن شدّاد: ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس رحمه الله، وكان شديد الركض ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت إلاّ من وقوعه عن ظهر الفرس.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه: صح من المصاب بالمولى الدارج غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تربه، ما عظمت به اللوعه، واشتدت الروعة، وتضاعفت لغيبتنا عن

مشهده الحسره، فاستنجدنا بالصبر فأبى، وانحدرت العبره، فيا له فقيداً، فقد عليه العزاء، وهانت بعده الأرزاء، وانتشر شمل البركة بفقده فهي بعد الاجتماع أجزاء:

وتخطفته يد الردى في غيبتي
هبني حضرت فكنت ماذا أصنع

قال ابن أبي طي الحلبي: هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، ولايعرف في نسبه أكثر من والده شاذي، وحدّثني أبي رحمه الله قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول : شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابن أبي طي: وقد ادّعى ابن سيف الاسلام لما ملك اليمن أنهم من بني مروان بن محمد الجعدي المعروف بالحمار، يعني آخر خلفاء بني أمية، قال: وقد نقبت عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أن هذا كذب، وأن جميع آل أيوب لايعرفون جداً فوق شاذي، وكذلك أخبرني السلطان الملك الناصر رحمه الله.

قلت: ودليل صحة ذلك أني وقفت على كتاب وقف الرباط النجمي بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي، وابن سيف الاسلام هذا هو أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب ابن شاذي إن أخي السلطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه، وتعاظم إلى أن ولى نفسه الخلافة، وادعى أنه من بني أمية، وعزم على اعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية، وله في ذلك أشعار كثيرة، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، ومدحه كثير من الشعراء بذلك، وزينواله فعله وما هو فيه، فمن شعره:

وإنني أنا الهادي الخليفة والذي
أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد

- ٨٠٨٢ -

ولابد من بغداد أطوي ربوعها ... وانشرها نشر السماسر للبرد

وانصب أعلامي على شرفاتها ... وأحيي بها ما كان أسسه جدّي

ويخطب لي فيها على كل منبر ... وأظهر دين الله في الغور والنجد

قال ابن أبي طي: وكان نجم الدين أيوب عدلا مرضياً، كثيراً الصلاة والصلات، غزير الصدقات والخيرات، يحب العلماء ويميل إلى الفضلاء، وكان ممدحاً مدحه العماد الكاتب بجملة قصائد، قال: وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان ، كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقد، وحدّثني جماعة أن مولد نجم الدين كان بجبل جور، وربي في بلد الموصل، ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السلطان محمد بن ملكشاه، فرأى منه أمانة وعقلاً وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت، فقام في ولايتها أحسن قيام، وضبطها أكرم ضبط، وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث، حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها، فلما ولي السلطان مسعود الملك أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق، وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس، فأقر الأمير نجم الدين في ولاية تكريت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرر أمره عند السلطان مسعود، وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين، ومعذوقا بهمته، وكان نجم الدين عظيماً في أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة، وكان لايمر أحد من أهل العلم والدين به إلاّ حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لايسمع بأحد من أهل الدين في مدينة إلاّ أنفذ إليه.

obeikandl.com

وقد ذكر العماد الكاتب في سيرة السلجوقية الأمير نجم الدين وقرظة وأثنى عليه، وذكر من دينه وعفته، ووفور أمانته، وكثرة خيره أشياء حسنه، وحكى قضية عمه العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزيني، وأمره بقتله فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدركزيني، ثم إن السلطان مسعوداً حشد وخرج في أخذ السلطنة وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سنقر في بغداد، وجرد عسكراً ضخماً، وسارا إلى تكريت طامعين في بغداد واتصل الخبر بقراجه الساقي وهو أتابك ابن السلطان محمود، فجرد ألف فارس للقاء زنكي، ثم اردفهم بعسكر ضخم فانهزم زنكي وقتل جماعة من أصحابه وجملة ممن كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكريت وبه عدّة جراحات ، وعلم به الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه فمتحاه(١٢٦) إلى القلعة بحبال وداويا جراحاته وخدماه أحسن خدمة وتقرباً إليه ، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً، ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظهر فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظهر حتى أنهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ما سلم معه من امتعته، فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصنيعة ويواصله بالهدايا والألطاف مدّة مقامه في تكريت، فلما انفصل عنها على ما سنذكره تلقاه زنكي بالرحب والسعة، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعه عدّة قطائع، وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبات قلوبهم، وكان أخوه شيركوه معه في القلعة، وكان شجاعاً باسلاً ينزل من القلعة ويصعد إليها في اسبابه وحاجاته، وكان نجم الدين لايفارق القلعة، ولا ينزل منها فاتفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه، ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً فاتفق في ذلك اليوم أن النصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصراني، وصعد إلى القلعة، وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته في أمر النصراني، وأخذ النصراني

برجله فألقي من القلعة، وبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى، وحضر عنده من خوّفه جراءة أسد الدين، وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا، وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب سيره صحبة الكتاب، فأجاب نجم الدين إلى ذلك بالسمع والطاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهل ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين، وصمما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل، وقيل إن أسد الدين كان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين، وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين من بين أظهرهم، ولم يبق أحد إلا خرج لتوديعه، وأظهر البكاء والأسف على مفارقته، ولما اتصل باتابك زنكي قدومهما أفرحه ذلك، وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقطعهما في بلد شهرزور اقطاعاً سنياً، وقيل إنه أقطع أسد الدين بالموزر، وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودّة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته، وتجرد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمر أخيه نجم الدين، حتى قربهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة، وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفار، وقتال الفرنج لعنهم الله، وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء، والفعلة الغراء، وحدثني أبي رحمه الله قال: حدّثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي، وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب، قال: وحدّثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح، قال: حدّثني حسام الدين سنقر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين وإقامة دعوة بني العباس في أوّل سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر،

ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول، فبينا الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر، ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين فقال له: يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان، فضحك نجم الدين، وقال: صدقت والله ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله والقضاة والأمراء، وقال: لكلام هذا النصراني حكاية عجيبة، وذلك أنني ليلة رزقت هذا الولد، يعني السلطان الملك الناصر، أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيركوه رحمه الله، وقتله النصراني وكنت قد ألفت القلعة، وصارت لي كالوطن، فثقل عليّ الخروج منها والتحوّل عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك، وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته، فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ، ولم افرح به، ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنت له فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبما استحق ذلك منك وهو لاينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً ، وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله سبحانه وقدره، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد أوقفني على ما كان قاله، فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق، وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه، قلت ولعمارة في نجم الدين مدائح ومراث منها قوله:

ثغر الزمان بنجم الدين مبتسم
ووجهه بدوام العز متسم

يقول فيها:

أضحى بك النيل محجوجاً ومعتمراً
كأنما حل فيه الحل والحرم
جاءت بنوك وشمل الدين منتشر
فقار عوا عنه فهو اليوم منتظم
ومادرى أحد من قبل رؤيتهم
أن الحظوظ بلثم الأرض تقتسم
نامت عيون الورى في عدل سيرتهم
كأن يقظتنا في عصرهم حلم
والناصر ابنك كاف كل معضلة
إذا الحوادث لم يكشف لها غمم
أعز بالبأس والاحسان حوزتنا
فلم يلم بنا خوف ولا عدم
تبسم الدست من أيوب عن ملك
تنحط عن قدره الاقدار والهمم

وقال في مرثيته:
هي الصدمة الأولى فمن بان صبره
على هول ملقاها تضاعف أجره
أذم صباح الاربعاء فانه
تبسم عن ثغر المنية فجره
أصاب الهدى في نجمه بمصيبة
تداعى سماك الجوّ منها ونسره
فلا تعذلونا واعذرونا فمن بكى
على فقد أيوب فقد بان عذره
أقام بأعمال الفرات وخيله
يراع بها نيل العزيز ومصره
إلى أن رماها من أخيه بضيغم
فرى نابه أهل الصليب وظفره

فلما قضى نحبي حياة ودولة
بأمرك في ادراكها تم أمره
تعاقبتها مصراً تعاقب وابل
يبيت بقطر النيل ينهل قطره
نزلت بدار حلها فحللتها
فمغناك مغناه وقطرك قطره
وواخيته في البر حيا وميتا
فقبرك في دار القرار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع إليكما
وإلا فسكان الحجون وحجره
هنيا الملك مات والعز عزه
وقدّرته فوق الرجال وقدره
وأدرك من طول الحياة مراده
وما طال إلاّ في رضى الله عمره
وأسعد خلق الله من مات بعدما
رأى في بني ابنائه ما يسره
شهيد تلقى ربه وهو صائم
فكان على أجر الشهادة فطره
مضى وهو راض عنك لم ترم صدره
لضيق ولا جاشت من الغيظ قدره
حمى حوزة الاسلام والدين بعده
ثمانية من أجلهم عز نصره
فكيف بخيس آل أيوب أسده
لقد بان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجما تعرف الشمس إنه
أبوها ونور البدر منها وزهره
وأبقى المقام الناصري فإنه
لدولتكم كنز الرجاء وذخره

وقال أيضاً:

صفو الحياة وإن طال المدى كدر
وحادث الموت لا يبقي ولا يذر
وما يزال لسان الدهر ينذرنا
لو أثرت عندنا الآيات والنذر
فلا تقل غرّت الدنيا مطامعنا
فما مع الموت لا غش ولا كدر
كأس إذا ما الردى حيا الحياة بها
لم ينج من سكرها أنثى ولا ذكر
كم شامخ العز لاقى الذل من يدها
ما أضعف القدر إن ألوى به القدر
في كل جيل وعصر من وقائعها
شعواء يقطر منها الناب والظفر
أودى عليّ وعثمان بمخلبها
ولم يفتها أبو بكر ولا عمر
ومن أراد التأسي في مصيبته
فللنبوري برسول الله معتبر
نجم هوى من سماء الدين متكدراً
والنجم من أفقه يهوي وينكدر
منظومة أنجم الجوزاء من جزع
له وعقد الثريا منه منتشر
وكيف ينسى محياه الكريم ومن
نعماه في كل عيش صالح أثر
جدّدت من أسبد الدين الشهيد لنا
حزنا به يتساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدنيا بعزمكما
ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
إن فاح نشر كلام تمدحان به
مسكا فعترة أيوب هي العطر

تخفي ذبال مصابيح إذا طلعوا
صبحاً وتنسي ملوك الأرض إن ذكروا
كأنما صور الله الكمال بهم
شخصاً ويوسف منه السمع والبصر
لا شوبك منه معصوم ولا كرك
ولا خليل ولا قدس ولا زغر
لم يرتحل قافلاً إلاّ وساكنها
إما مباح حماه أو دم هدر
ما مات أيوب إلاّ بعد معجزة
في المجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيداً من الدنيا وليس له
في رتبة أرب باق ولا وطر
وطوّل الله منه باع أربعة
منها الندى والتقى والملك والعمر
وأشرف الملك ما امتدت مسافته
في صحة أخواها العقل والكبر
ومن سعادته أن مات لا سأم
يشكوه منه معانيه ولا ضجر

فصل

قال: العماد وسار نور الدين قاصداً جانب الشمال لتسديد ما اختل هناك من الأحوال، فسار إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، ثم حلب، وفعل في كل منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم، ففتح مرعش في العشرين من ذي القعدة، ثم فتح بهسنى، واتبع في كل منهما الطريقة الحسنى، وكتب العماد إلى صديق له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المشمش:

كتابي فديتك من مرعش
وخوف نوائبها مرعشي
وما مر في طرفها مبصر
صحيح النواظر إلاّ عشي
وما حل في أرضها أمن
من الضيم والضر إلا خشي
ترنحني نشوات الغرا
م كأني من كأسه منتشي
أسرّ وأعلن بروح الجوى
فقلبي يسر ودمعي يشي
بذلت مهجتي رشوة
فحاكم حبكم مرتشي
وكيف يلذ الكرى مغرم
بنار الغرام حشاه حشي
بمرعش أبغي وبلوطها
مضاهاة جلق والمشمش

قال العماد في الخريدة: فسارت هذه القطعة ونمى حديثها إلى نور الدين، قال: فاستنشدنيها فأنشدته إياها، ونحن سائرون في واد كبير، مع بيتين بدهت بهما في الحال وهما:

وبالملك العادل استأنست
نجاحا مني كل مستوحش
وما في الأنام كريم سوا
ه فإن كنت تنكر ذا فتش

قال ابن الاثير: وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي، وهي ملطية وسيواس وقونيه وأقصرا، عازما على حربه، وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند،

صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً، وملتجئاً إلى ظله فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك ووعده النصر والسعى في ردّ ملكه إليه، وكانت عادة نور الدين أنه لايقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر، وغيرها، فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان، وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً وفرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح، وكان في جملة رسالة نور الدين إليه:«إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي اقرارك على بلاد الاسلام، فإني لا أعتقدك مؤمنا، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة، والثاني إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الاسلام، وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فأما أن تكون تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وأما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم، والثالث أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي»، وذكر أموراً غيرها فلما سمع قليج أرسلان الرسالة، قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة علي بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب أنا أجدّد اسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عيد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان ملكها.

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الامام الكبير قطب الدين النيسابوري، وهو فقيه عصره، ونسيج وحده، فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق فدرس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدّسي رحمه الله، ونزل بمدرسة الجاروق، وشرع نور الدين في انشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلت: هي المدرسة العادلية الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر ابن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين، ومن بعده منها، وهو موضع المسجد والمحراب الآن، ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المحكم الذي لانظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قدّر الله تعالى جمع هذا الكتاب، فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى.

وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام الناصرية في سنة ثمان وسبعين، وقد وقف كتبه على طلبة العلم، ونقلت بعد بناء هذه المدرسة إليها فما فاتها ثمرته إذ فاتها مباشرته رحمه الله.

قال العماد: وكان وفد في سنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن محمد بن حمويه، فأقبل عليه نور الدين وأمرني بانشاء منشور له بمشيخة الصوفية، ورغبه في المقام بالاحسان إليه بالشام، ومن جملة ما أتحفه به عمامة بأعمدة ذهبية، كان قد أنفذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزنة ذهبها، فلم يجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العمامة في أخبار نور الدين أوّل الكتاب من كلام ابن الاثير وابن المعطى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله رحمهم الله.

ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه:« فلينظر في رباط السمسياطي، وقبة الطواويس، ورباط الطاحونة وغيرها من ربط الصوفية بدمشق المعمورة وبعلبك، ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل الرحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني قطائف وكتب إليه:

ما راقدات في صحون
مستوطنات في سكون
أو كالعقائل في الخدو
ر قد اعتقلن على ديون
أو كالتمائم للصحـ
ـف وما نسبن إلى جنون
صرعى وما دامت لها
يوما رحى الحرب الزبون
يحيين بالتغريق بل
يسمن في ضيق السجون
نضدن بالترصيع في الـ
ـجامات كالدر المصون
وقد اشتملن من اللطا
ئف والصفات على فنون
يجلي أمثال العرا
ئس بين أبكار وعيون
هنّ اللذيذات اللوا
ئذ بالسهول من الحزون
السكريات الغريـ
ـقات الغلائل والشؤون
للفن في أكفانهن
على المنى لا للمنون

- ٨٠٩٤ -

المستطـــابـــات الظهـــو
ر المستلـــذات البطـــون
المستقيمات الصفـــوف
وقفـــن كـــالخيـــل الصفـــون
اسمـــع حـــديثـــي في انبســـا
طـــي فـــالحديـــث أخـــو شجـــون

وهي أكثر من هذا

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدّم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين وتطاوله بقوّته على الروم والأرمن، وكانت الدروب تحت أذنه والمصيصة وسيواس يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر وساق لنور الدين من مقدّمي الروم ثلاثين أسيراً، فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين الشهرزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد ويقول فيه:« وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظلام المدلهمّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يدني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الامام»، وفي آخره «ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تيسر في هذه النوبة من افتتاح بعض بلاد النوبة، والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الاسلامية في العصور الخالية، وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على برقة وحصونها، وتحكموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السؤال بعنقاء مغرب».

قلت: اتفق في هذه السنة وصول قراقوش غلام تقي الدين من الديار المصرية، مع طائفة من الترك، فانضم إليهم جماعة من العرب، فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: « ونسأل الله التوفيق لاستدناه قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده، ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده» وسير العماد معه قصيدة منها:

بـــا لمستضيء أبي محمـــد الحســـن
رجعـــت أمـــور المسلمين إلى السنـــن
في أرض مصر دعـــا لـــه خطبـــاؤهـــا
وأتـــت لتخطـــب بكـــر خطبتـــه عـــدن
فـــا لمغـــرب الأقصـــى بـــذلـــك مشرق
وبنصر مصر محقـــق يمـــن اليمـــن
ورأى الالـــه المستضيء لشرعـــه
وعبـــاده نعـــم الأمين المؤتمن
سر النبـــوّة كـــامـــن فيـــه ومـــن
فطـــر الامـــامـــة مشرق نـــور الفطـــن
تقـــوّى أبي بكـــر ومـــن عمـــر الهدى
وحيـــاء عثمان وعلـــم أبي الحســـن
وبجـــده عـــرفـــت مقـــالـــة حيـــدر
لامـــن ددأنـــا ولا منـــي الـــددن
كـــم مـــن عـــدو ميـــت في جلـــده
رعبـــا وخـــوفـــاً فهـــو حـــي في كفـــن

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله :

هـــل مثـــل محمـــود بـــن زنكـــي مخلـــص
متـــوحـــد يبغـــي رضـــاك بكـــل فـــن
ورع لـــــدى المحـــــراب أروع محرب
في حـــالتيـــه إن أقـــام وإن ظعـــن
يمسي ويصبـــح في الجهـــاد وغيره
يضحـــي رضيـــع ســـلافـــة وضجيـــع دن
وبعـــزة الاســـلام منتصراً حـــراً
وبـــذلـــة الاشراك منتقما قمـــن

قال ابن أبي طيّ: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين، وخمسين ديناراً من

دنانير النثار التي نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكي والد نور الدين قديما من انعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم في حقه فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما مثاله الشريف إليه، وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطىء دجلة أرضا يبنيها مدرسة للشافعية، ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر والذكر الباقي على ممر الدهر، فقيل له ما ثم موضع يصلح لهذا إلاّ درار التمر فعاقه أمر القدر عن قدرته على هذا الامر.

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ونور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته، ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود ابن قفجاق صاحب ملطية، وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المجدل فسرحهم بالعطاء الأجزل، والسمت الأجمل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الفراة فتقبله مستخلف الأرمن بالبراق، وحمل خمسين ألف دينار على سبيل الجزية مصانعة بذل وصغار، وعاد إلى حلب، وقد أنجح في كل ما طلب، وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتاث سره لالتياث سريته وحظي بمرض القلب لمرض جسم محظيته، وجرت شكايته شكاية جاريته، فتصدّق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف، ثم سيرها في محفة تحمل على يدي الرجال في خفة، وسارت على الطريق المهيع مع العسكر يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تقرب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدّم بحق لازم من بخدمته شيعها، وتأخر نور الدين جريدة مع عدّة من مماليكه وأمرائه المماحضين في ولايته، وتقدّم إليّ أن أسايره في طريقه وأحاوره وأحاضره في منازله وأسامره، وسرنا على طريق قبة ابن ملاعب والمشهد وسلميه، فجاءه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران، فثنى إلى الجهاد العنان، وسمع الفرنج به فتفرّقوا وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق.

قلت: وفي جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك وعلامته عليه بخطه «الحمد لله» يقول فيه:« وبعد فانّ من سنتنا العادلة وسير أيامنا الزاهرة، وعواد دولتنا القاهرة إشاعة المعروف، وإغاثه الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون، من جائرات الرسوم، وما نزال نجدّد للرعية رسما من الاحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقرىء أعمال بلادنا المحروسة ونصفيها من الشبه والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي

رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرّباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسيوغ المواهب، وبلوغ المطالب، وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور، والعقيبة ومزارعها الجارية في الاملاك، وجميع ما يقسط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهرباً من انتقامه واليم عقابه، وسبيل الثواب إطلاق ذلك على الدوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من أوزاره، والاحتراز من التدنس بأوضاره وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسع وستين، وما بعدها على تعاقب الأيام والسنين».

فصل

في فتح اليمن

قال العماد: وفي رجب توجه تورانشاه أكبر أخوة صلاح الدين إلى اليمن، فملكها وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه فتجهز وسار إلى مكة ثم إلى زبيد، فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ ومضى إلى عدن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلي، وفتح حصن تعز من القلاع، ففتح اقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بكراً، وشيع ذكرا.

وقال ابن شدّاد: ولما كان سنة تسع وستين، رأى صلاح الدين قوّة عسكره، وكثرة عدد أخوته، وقوّة بأسهم، وكان بلغه أن باليمن انساناً

استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه يسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم أنه ينشر ملكه إلى الأرض كلها واستتب أمره، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق، سمعت منه ـــ يعني من صلاح الدين رحمه الله ـــ الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه، فمضى إليها، وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قلت: وكان أخو هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلام له قال: وكان جماعة من أماثل الناس، مثل بركات المقرىء وعلي بن محمد النيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن، وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلق به.

وقال العماد في الخريدة: علي بن مهدي ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شرب الخمر، وادّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدّث نفسه بالمسير إلى مكة فمات سنة ستين، وتولى بعده أخوه، وله شعر حسن يدل على علوّ همته (١٢٧).

قال ابن أبي طي: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جوّاداً، وكان إقطاعه بمصر لايقوم بفتوّته، ولاينهض بمروّته، وكان قد انتظم في سلكه عمارة الشاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه، وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها، وضعف من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت فمن جملة شعره في ذلك قوله من قصيدة أوّلها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم
وشفرة السيف تستغني عن القلم
كم تترك البيض في الأجفان ظامئة
إلى الموارد في الأعناق والقمم
أمامك الفتح من شام ومن يمن
فلا تردّ رؤوس الخيل باللجم
فعمك الملك المنصور سوّمها
من الفرات إلى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به
إلى سواك وأور النار في العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
كما يقول الورى لحماً على وضم
وقد ترقى إلى أن امسكت يده
من الكواكب بالأنفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأي أتاك وقل
نصيحة وردت من غير متهم

وله من أخرى:

أفاتح أرض النيل وهي عظيمة
على كل راج فتحها ومؤهل
متى توقد النار التي أنت قادح
بغمدان مشبوباً سناها بمندل
وتفتح ما بين الحصين وابين
وصنعاء من حصن حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرق وجعفر
نقيضين من حزن خصيب ومسهل
وتخلق ملكاً لا يحيل بفخره
على أحد إلا على عزمك العلي

وله من أخرى:

قـــالـــوا إلى اليمـــن الميمـــون رحلتـــه
فقلـــت مـــا دونـــه شيء ســـوى السفـــر
سير يسر بنـــي الـــدنيـــا وطيـــب ثنـــا
وطـــول عمـــر كـــذا يحكـــى عـــن الخضر
لا تـــوقـــدن لها النـــار التـــي خمدت
خفـض عليـك تنـل مـا شئـت بـالشرر
المال مـــلء يـــد والقـــوم ملـــك يـــد
ولا أطيـــل وهـــذا جملـــة الخبر

قال ابن أبي طيّ: ووافق ذلك أنه كاتبه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم، وأطمعه في المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدّى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن، فأجابوه فتجهز، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له وأطلق له مغل قوص سنة، وزوّده فوق ما كان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عمن سيره من حلقته، وسار في البر والبحر، في البر العساكر، وفي البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات، فوصل إلى مكة شرفها الله تعالى، فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن فوصل زبيد في أوائل شوّال، فنزل عليها ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني، وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جم، وعدد كبير، فهجم زبيد وتسلمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبي أخي علي بن مهدي، ثم رحل إلى عدن، وفي صحبته ابن مهدي، ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلي، ثم سار إلى المخلاف وتسلم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي كتعز وغيرها، وسار إلى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها، فأحرقت صنعاء فدخلها شمس الدولة فلم يجد بها إلاّ شيخا وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة.

فرجع إلى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبي بن مهدي، وكان

شمس الدولة قد استناب بزبيد الأمير سيف الدولة المبارك ابن منقذ، وأمره بحمله، فلما بعد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة في قتله، فقتله ابن منقذ بزبيد، فلما بلغ شمس الدولة قتله استصوبه، ولما حصل شمس الدولة في زبيد انفذ إليه صاحب طمام (١٢٨) وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال، ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان وخوّله من ملك الديار والبلدان، فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن على ابن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصل

ذكر العماد هاهنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ، المستناب بزبيد ووصفه بأنه من الكفاة والكرماء، والدهاة ذوي الآراء، وهو فاضل من أهل بيت فضل، كتب العماد من شعره:

لما نزلت الدير قلت لصاحبي
قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى وفي يمناه كأس خلتها
مقبوسة في الليل من نبراسه
وكأن ما في كأسه من خدّه
وكأن ما في خدّه من كاسه
وكأن لذة طعمها من ريقه
وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربها بغنائه
إذ بات يجلوها على جلاسه
إذ قام يسقينا المدام وكلما
عاتبته ردّ الجواب براسه

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذروي المصري بقصيدة غراء ذالية، ما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظاً، وأدق معنى أوّلها:

لك الخير عرج بي على ربعهم فذي
ربوع يفوح المسك من عرفها الشذي

يقول فيها

مبارك عيس الوفد باب مبارك
وهل منقذ القصاد غير ابن منقذ

قال العماد: ثم سير نور الدين إلى بغداد بشارة بأمرين أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الروم مرة ثانية، ومقدّمهم الدوقس كلمان، وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوباً أطلسا، وسير معه أسرى من الروم، وذلك في شعبان هذه السنة، ومما تضمنه كتاب البشارة « ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة(حمر مستنفرة. فرّت من قسورة)»،وقبل ذلك بشهرين سيرت قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد أوّلها:

أطاع دمعي وصبري في الغرام عصي
والقلب جرع من كأس الهوى غصصا
وإن صفو حياتي ما يكدّره
إلا اشتياقي إلى أحبابي الخلصا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا
وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

ومنها:

من ذا الذي سار سيري في ولائكم
غداة قال العدى لاسير عند عصا

قـــدنـــال عبـــدك محمـــود بها ظفـــراً
مـــازال يـــرقبـــه مـــن قبـــل مـــرتبصـــا
مـــن خـــوف سطـــوتـــه إن العـــدوّ إذا
أم الثغـــور على أعقـــابـــه نكصـــا

وكلف نور الدين في هذه السنة بـافادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصدقـات، وتوفير النفقـات، وكسوة النسوة والأيـامى في أيـامها، وإغناء فقـراء الرعيـة وانجادهـا بعد إعـدامها، وصـون الأيتام والأرامـل ببذله، وعـون الضعفاء وتقوية المقـوين بعدله، ثـم ذكر ما قدّمنـا ذكره في أوّل الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة.

قال العماد: وفي يـوم الاثنين رابع شهـر رمضان ركـب نور الـدين على العادة، وجلسنا نحن في ديـوانه حافلين في إيوانه لبسط عدلـه وإحسانه، وتنفيذ أوامر سلطـانه، فجاءني من أخبرني أن نور الديـن نزل إلى المدرسة التي أتولاها، وبسط سجادته في قبلتها لسنة الضحى وصلاها، فقمت في الحال، ومضيـت على الاستعجـال، فلقيتـه في الدهليـز خـارجـاً في أجـر العيادة نـاجحاً، ولنهج السعادة نـاهجاً، فلما رآني توقف، ولقـولي تشوّف، فقلت له: إن الموضع قـد تشرف، أما ترى أنه من أيام الزلـزلة قد تشعث، فلما رأى حاله تلبث، وقال: نعيـده إلى العمارة، ونكسوه حلل النضارة، ثم حملت لـه وجوه سكـر وشيئاً مـن ثياب وطيـب وعنبر، وكتبت معهـا هذه الأبيات:

عنـــــــدسليمان على قـــــــدره
هـــديـــة النملـــة مقبـــولـــه
ويصغـــر الملـــوك عـــن نملـــة
عنـــدك والـــرحمة مـــأمـــولـــه
رقـــي لمولانـــا وملكـــي لـــه
وذمتـــي بـــالشكـــر مشغـــولـــة

وكيـــــــف يقضي الحق ذو منـــــــة
ضعيفـــة بـــالعجـــز معلـــولـــة
وإنما شيمـــــة مـــــولى الـــــورى
طـــاهـــرة بـــالخير مجبـــولـــة

قـال: وكان رأى قبلـة المدرسـة غير مفصصة، وبـالترخيـم والتذهيـب والتهذيب غير مخصصة، فأنفذ لي لعمارتها فصوصـا مذهبة وذهباً، ثم حم مقدور حمامـه، وعاق القـدر عن اتمامـه، ودفعت إلى الموصـل، فرأيتـه في المنام وهـو يجاريني في الكلام، ويقول مـا يعود إلى المدرسة معنـاه، وقال: الصـلاة الصلاة، فعـرفـت أنه أشـار إلى المحـراب، وأنـه للآن على هيئـة الخراب، فكتبت إلى الفقيـه الذي كان عنـده الذهـب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه.

فصل

قال ابـن أبي طيّ: وفي هذه السنـة وصل رسول نـور الدين الموفـق بن القيسراني إلى الـديار المصريـة، واجتمع بـالسلطـان الملك النـاصر، وأنهى إليه رسـالة نور الـدين وطالبـه بحساب جميع مـا حصله وارتفع إليـه من المغل، فصعـب على السلطان، وأراد شـق العصا لو لا مـا ناب إليـه من السكينة والعقـل فأمـر بعمل الحسـاب، وعرضـه على ابن القيسراني وأراه جرائد الأجناد بمبـالغ إقطاعهم وتعيين جامكيـاتهم ورواتب نفقاتهم، فلما حصل عنـده جميع ذلـك أرسل معه هـدية إلى نور الـدين على يـد الفقيه عيسى.

قال: وقفت على برنامج شرحهـا بخط الموفق بن القيسراني، وهي خمس ختمات، إحـداهـا ختمـة ثـلاثون جـزءاً مغشـاة بـأطلـس أزرق، مضببـة

بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب مكتوبة بذهب يانس، وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فستقي عشرة أجزاء، وختمة بخط ابن البواب مجلد واحد بقفل ذهب، وختمة بخط مهلهل جزء واحد وختمة بخط الحاكم البغدادي * ثلاثة أحجار بلخش: حجر وزنه إثنان وعشرون مثقالا، وحجر وزنه إثنا عشرة مثقالا، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف* ست قصبات زمرد قصبة وزنها ثلاثة عشرة مثقالاً وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث* وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل* وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس* مائة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا* خمسون قارورة دهن بلسان* عشرون قطعة بلور* أربعة عشر قطعة جزع، وذكر تفصيلها. إبريق يشم* طشت يشم* سقرق مينا مذهب* صحون صيني وزبادي وسكارج* أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار* كرتان وزن أحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري، والأخرى أحد وعشرون رطلاً* مائة ثوب أطلس* أربعة وعشرون بيقاراً مذهبة* أربعة وعشرون ثوبا حريري* أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض* حلة فلفلي مذهبة* حلة مرايش صفراء مذهبة، وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعدّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السلاح على اختلاف ضروبه، قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد، ومنها ما استهلك لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعوا عليهم من نهبهم واستبدّوا بأكثرها، وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين، فأنفذ من ردّها.

قال: وحدّثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالا لم يعلم مقداره.

وقال العماد: لما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفق خالد أطلعه على كل ما هو فيه، وأحصى له الطريف والتالد، وقال: هؤلاء الاجناد فاعرضهم واثبت أخبارهم، وما يضبط مثل هذا الاقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها، وقد تصرفوا في مواضع لايمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن ينقص ارتفاعها، فالموارد مشفوهة، والشدائد مكروهه، والمقاصد بردعها مجبوهه، والهمم بها مشدوهة، وشرع في جمع مال يسيره، وبحمله بجهد يبذله، وبخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خلده، وجاء مطرف غناه أضعاف متلده.

فصل

في طلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دعاة الدولة المصرية المتعصبة المتصعبة المتشدّدة المتصلبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفيه، واعتقدوا أمنية عادت بالعقبى عليهم منيه، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرأي والتدبير وتبيتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدهم، ودعا للدّعوة قريبهم وبعيدهم، وكانوا قد أودعوا سرّهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عدّة من أنصار الدولة الناصرية في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم، وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا يناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم، ويداخلهم في عزم خروجهم، مطلعاً على أحوالهم، وتقاسموا الدور والأملاك، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم وما سوّلوه من مراد مرادهم وطلب مالابن كامل الداعي من العقار والدور، وكل مما له من الموجود والمذخور، فبذل له السلطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغبه، ثم أمر السلطان باحضار مقدّميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين منهم عمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم ومات بموتهم الخبر عنهم، وكان منهم داعي الدعاة ابن عبد القوي ، وكان عارفا بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بابدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك الدفائن مخزونة، قد دفن دافنها، وخزن تحت الثرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها والاطلاع عليها، وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام للاستعانة به على حماية ثغور الاسلام.

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين

والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا اليه من الذل والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً وتجمعوا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، وأن يثبوا بالملك الناصر، وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، واعدّوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها وكاتبوا الفرنج بذلك وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر، فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه ونكث في اليمين وكفر عنها، وصار إلى الملك الناصر، وعرفه بجلية ما جرى، قال: فأحضرهم واحداً واحداً وقررهم على هذه الحالة، فأقروا واعترفوا واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم، فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم، وقيل إن الذي أذاع سرّهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع مالابن الداعي من العقار والمال، فأعطاه جميع ذلك، وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي والعوريس، وكان قد تولى ديوان النظر، ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين ونجاح الحمامي، ورجل منجم نصراني أرمني، كان قال لهم: إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قلت:وبلغني أن عمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في الخريدة: وقعت اتفاقات عجيبة من جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حرض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن أوّلها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم

وقد تقدّم ذكرها وأما البيت فهو هذا

قد كان أوّل هذا الدين من رجل
سعى إلى أن دعوه سيد الأمم

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله . (١٢٩)

قال: ولعمارة في مصلوب بمصر، يقال له طرخان، وكان خرج على الصالح بن رزيك، فظفر به الصالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات عمارة فيه وهي:

أراد علو مرتبة وقدر
فأصبح فوق جذع وهو عال
ومدّ على صليب الجذع منه
يمين لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب
دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره.

وقال في البرق: ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية،وهو بخط ابن قريش يعني المرتضى.

وقال ابن أبي طي: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شرح فيه قضية المصلبين، فقال بعد مطلع الكتاب: « قصر هذه الخدمة على متجدّد سار للاسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في اظهاره على الدين كله، بعد أن كانت لها مقدّمات عظيمة، إلا أنها اسفرت عن النجح، وأوائل كالليلة البهيمة، إلا أنها انفرجت عن الصبح، فالاسلام ببركاته البادية، وفتكاته الماضية، قد عاد مستوطناً، بعد أن كان غريباً،

وضرب في البلاد بجرانه بعد أن كان كالكفر يتم عليه تخيلا عجيباً، إلا أن الله سبحانه اطلع على أمرها من أوّله، وأظهر على سرها من مستقبله، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر، لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم أعداء، وإن تعدّت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام، وكان لايحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكله، وخطراته في التحرز منهم مستعمله، لاتخلو سنة تمر، ولا شهر يكر، من مكر يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها، وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطره إلى الفرنج، خذلهم الله التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع، ويزينون لهم الاقدام والقدوم، ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لايقطعون حبل طمعهم على عادتهم، وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيل في مفاوضتهم، سير جرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارضاً علينا الجميل الذي ما قبلته قط أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا، ولأهل القصر والمصريين في أثناء هذه المدد رسل تتردّد وكتب إلى الفرنج تتجدّد »، ثم قال: « والمولى عالم أن عادة أوليائه المستفادة من أدبه أن لايبسطوا عقابا مؤلما، ولا يعذبوا عذابا محكما، وإذا طال لهم الاعتقال ولم ينجع السؤال أطلق سراحهم وخلى سبيلهم، ولا يزيدهم العفو إلا ضرارة، ولا الرقة عليهم إلاّ قساوة، وعند وصول جرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه يذكرون أنه رسول مخاتله لارسول مجامله، وحامل بلية لاحامل هدية، فأوهمناه الاغفال عن التيقظ لكل ما يصدر منه وإليه فتوصل مرة بالخروج ليلاً ومرة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها

نهاراً إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم من داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم ويرفع إلينا أحوالهم، ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى، وقبضنا على جماعة مفسده، وطائفة من هذا الجنس متمرده، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسرائر المنافقة، فكلا أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقر طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقر بعد ضربه فانكشفت أمور أخرى كانت مكتومة، ونوب غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد متفقة في الفساد».

ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد، وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له، وأما بنورزيك، وأهل شاور فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

ثم قال: وكانوا فيما تقدّم والمملوك على الكرك والشوبك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر أو إلى إيله ثارت حاشية القصر، وكافة الجند، وطائفة السودان وجموع الأرمن، وعامة الاسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جرج كتبوا إلى الملك الفرنجي إن العساكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلاّ بعضهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده، وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدّم ذكره من الثورة.

ثم قال: وفي أثناء هذه المدّة كاتبوا سناناً صاحب الحشيشية بأن الدعوة واحده، والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمه، ولا يجب به قعود عن نصره، واستدعوا منه من يتمم على المملوك غيله، أو يبيت له مكيدة وحيلة، (والله من ورائهم محيط) (١٣٠) وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن، هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صح الخبر وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة الدعاة إلى النار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبع لأتباعهم، وشرّدت طائفة الاسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر، وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد، فأما من في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم، إلى أن ينكشف وجه رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه المستخار، وهو المستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده، ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوافيه بقيت مادة لا تحسم الأطماع عنها، فإنه قبلة للضلال منصوبة، وبيعه للبدع محجوجة ـــ قال المؤلف: لعلها محجوبة- ومما يطرف به المولى أن ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه أطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره، محتقراً شخصه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وإن أرباب المعاش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهن، ووجدت في منزله بالاسكندرية، عند القبض له، والهجوم عليه

كتبا مجرّدة فيها خلع العذار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها فيها ما تقشعرّ منه الجلود، وكان يدعي النسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ونشأ على الضلالة كبيراً، وبالجملة فقد كفي الاسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قصيدة عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي رحمه الله ونقلته من خطه:

عمارة في الاسلام أبدى جنايةً
وبايع فيها بيعةً وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد
فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته
تجد منه عوداً في النفاق صليبا
صليب سيلقى غداما كان يسعى لأجله
ويسقى صديداً في لظى وصليبا

قلت: الصليب الأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع ودك العظام، وقيل هو الصديد أي بسقي ما يسيل من أهل النار، نعوذ بالله منها.

وكان عمارة مستشعراً من الغُزّ، وهم أيضاً منه لأنه كان من أتباع الدولة المصرية، وممن انتفع بها، واختل أمره بعدها، فلم تصف القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه في نظمه ونثره ما يقتضي التحرز منه وابعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلف ذلك وصرّح وعرض فيه بما في ضميره، وقد قال في كتاب الوزراء المصرية: ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه، ولا يطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم، وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب:

وكـــان لي في ملـــوك النيـــل قبلكـــم
مكـــانـــة عـــرفتهـــا العـــرب والعجـــم
وكـــان بينـــي وبين القـــوم ملحمـــة
في حـــربها ألســـن الاديـــان تختصـــم
ومـــا تـــزال إلى داري عـــوار فهـــم
يسعـــى إليّ بها الإنعـــام والكـــرم
تـــركـــت قصـــدك لما قيـــل إنـــك لا
تجود إلا على مـــن مســـه العـــدم
ولســـت بـــالـــرجـــل المجهـــول مـــوضعـــه
ولا لنـــزر مـــن الاحســـان أغتنـــم
ولا إلى صـــدقـــات المال أطلبهـــا
ولا عمـــى نـــال أعضـــائي ولا صمـــم
وإنما أنـــا ضيـــف للملـــوك ولي
دون الضيـــوف لســـان نـــاطـــق وفـــم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله:
قـــررت لي أبنـــاء رزيـــك رزقـــا
كـــان في عصرهـــم مستنـــا مهنـــا
وأتـــت بعـــدهـــم ملـــوك فسنـــوا
فيّ مـــا كـــان صـــالـــح القـــوم سنـــا
ورعـــوني إمـــا اقتـــداء بماض
أو لمعنـــى فكلهـــم بي يعنـــى

وله فيه من أخرى
فقـــد صـــارت الـــدنيـــا إليكـــم بـــأسرهـــا
فـــلا تشبعـــوا منهـــا ونحـــن جيـــاع
إذا لم تـــريـــدونـــا فكـــونـــوا كمـــن مضـــى
ففـــي النـــاس أخبـــار لهم وسماع

وليس على مرّ الفطام إقامة
فهل في ضروع المكرمات رضاع

وقال في قصيدة مدح بها تقي الدين:

هل تأذنون لمن أراد عتابكم
أم ليس في إعتابكم من مطمع
ضيعتم من حق ضيفكم الذي
ما زال قبل اليوم غير مضيع
وتغافل السلطان عني حين لم
أكشف قناع مذلة وتضرّع
ورجوت نفعك بالشفاعة عنده
فسمحت لي بشفاعة لم تنفع
وإذا نطاق الرزق ضاق مجاله
أمسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضاً:

تيممت مصراً أطلب الجاه والغنى
فنلتهما في ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل ارتاد نيلهم
فاحمد مرتادي وأخصب مربعي
وفزت بألف من عطية فائز
مواهبه للصنع لا للتصنع
وكم طرفتني من يد عاضدية
سرت بين يقظى من عيون وهجع
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى
بما زاد عن مرمى رجائي ومطمعي
وأوحى إلى سمعي ودائع شعره
فخبرته مني بأكرم مودع

وليست أيادي شاور بذميمة
ولا عهدها عندي بعهد مضيع
ملوك رعوالي حرمة صار نبتها
هشيماً رعته النائبات ومارعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة
وإن خالفوني باعتقاد التشيع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه
من الحاكم المصغي إلي فأدّعي
أقمت لكم ضيفاً ثلاثة أشهر
أقول لصدري كلما ضاق وسع
وكم في ضيوف الباب ممن لسانه
إذا قطعوه لا يقوم بأصبعي
فيا راعي الاسلام كيف تركتنا
فريقي ضياع من عرايا وجوّع
دعوناك من قرب وبعد فهب لنا
جوابك فالباري يجيب إذا دعي

وقال أيضا:
أسفى على زمن الإمام العاضد
أسف العقيم على فراق الواحد
جالست من وزرائه وصحبت من
أمرائه أهل الثناء الخالد
لهفي على حجرات قصرك إذ خلت
يابن النبي من ازدحام الوافد
وعلى انفرادك من عساكرك الذي
كانوا كأمواج الخضم الراكد
قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم
فكبا وقصر عن صلاح الفاسد

فعسى الليالي أن تردّ إليكم
ما عوّدتكم من جميل عوائد

وقال أيضا:
قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف
عليّ ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة
كلام العدى فيها عليّ كلوم
وسامحه في قطع رزق بفضله
وصلت إليه والزمان ذميم
ألا هل له عطف عليّ فإنني
فقير إلى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل رحمه الله، وبلغني أن عمارة لما مروا به ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل فطلب الاجتماع به، فقيل ليس إليه طريق فقال:
عبد الرحيم قد احتجب
إن الخلاص هو العجب

قال: وهذه القصيدة تحقق ما ذكر من الاجتماع على مكاتبة الفرنج، والخوض في فساد الدولة، بل الملة، وتوضح عذر السلطان في قتله، وقتل من شاركه في ذلك، وهي:
رميت يا دهر كف المجد بالشلل
وجيده بعد حلي الحسن بالعطل
سعيت في منهج الرأي العثور فمن
قدرت من عثرات البغي فاستقل
جدعت مارنك الأقنى فأنفك لا
ينفك ما بين نقص الشين والخجل

هـدمت قـاعـدة المعـروف عـن عجـل
سقيـت مهـلا أمـا تمشي على مهـل
لهفـي ولهف بنـي الآمـال قـاطبـة
على فجيعتنـا في أكـرم الـدول
قـدمـت مصر فـأولتنـي خـلائفهـا
مـن المكـارم مـا أربـى على الأمـل
قـوم عـرفـت بهم كسب الألـوف ومـن
كما لها أنها جـاءت ولم أسـل
وكنـت مـن وزراء الـدسـت حيـث سما
رأس الحصـان تهاديـه على الكفـل
ونلـت مـن عظماء الجيـش تكـرمـة
وخلـة حـرسـت مـن عـارض الخلـل
يـا عـاذلي في هـوى أبنـاء فـاطمـة
لـك الملامـة إن قصرت في عـذلي
بـالله زر سـاحـة القصريـن وابـك معـي
عليهما لا على صفين والجمـل
وقـل لأهلهما والله مـا التحمـت
فيكـم قـروحـي ولا جـرحـي بمنـدمـل
مـاذا تـرى، كـ انـت الافـرنـج فـاعلـة
في نسـل آل أمير المؤمنين علي
هـل كـان في الأمـر شيء غير قسمـة مـا
ملكتـم بين حكـم السبـي والنفـل
وقـد حصلتـم عليهـا واسـم جـدّكـم
محمـد وأبيكـم غير منتقـل
مـررت بـالقصر والأركـان خـاليـة
مـن الـوفـود وكـانـت قبلـة القبـل
فملـت عنهـا بـوجهـي خـوف منتقـد
مـن الأعـادي ووجـه الـودّ لم يمـل

أسبلت من أسف دمعي غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكي على ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم
تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست
ورث منها جديد عنهم وبلي
وموسم كان في كسر الخليج لكم
يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأوّل العام والعيدان كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والارض تهتز في عيد الغدير بما
تهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية
مثل العرائس في حلى وفي حلل
ولا حملتم قرى الاضياف من سعة الـ
ـأطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضيـ
ـف المقيم وللطاري من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم
لمن تصدّر في علم وفي عمل
وربما عادت الدنيا لمعقلها
منكم واضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد في الخريدة: أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلة العلياء، والمرتبة الشماء، والمنزلة التي في السماء، حتى انكدرت نجومهم، وتغيرت رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعضد عاضدهم، وأخليت منهم مصرهم. وأجلي عنهم قصرهم، فحرك ابن كامل ناقص الذب عنهم والشدّ منهم، فأمال قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ليبلغوا به ما تخيلوه من المقاصد وسوّلوه من المكايد. فأثمرت بجثثهم الجذوع. وأقفرت من جسومهم الربوع. وأحكمت في لحومهم النسوع. وهذا أوّل من ضمه حبل الصلب. وأمه فاقره الصلب. وهذ ا صنع الله فيمن ألحد وكفر النعمة وحجد. وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة، سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره. وقد ذكروه عنده بالفضل والأدب. ونسبوا إليه هذين البيتين في غلام رفاء. وأنشدهما للملك الناصر وذكر أنه كان ينكرهما:

يـــارافيـــا خـــرق كـــل ثـــوب
ويـــارشـــا حبـــه اعتقـــادي
عســـى بكـــف الـــوصـــال تـــرفـــو
مـــا مـــزق الهجـــر مـــن فـــؤادي (١٣١)

فصل

في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردت شعر عمارة ابن أبي الحسن اليمني في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، ونقلت إلى هذا الكتاب ــ يعني كتاب البرق الشامي ــ لمعاً من ذلك فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو

محمد بن مصال:

لـــو أن قلبـــي يـــوم كـــاظمـــة معـــي
لملكتـــه وكظمـــت غيـــظ الادمـــع

قال العماد: إنما أنشدني فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم:

قلـــب كفـــاك مـــن الصبـــابـــة أنـــه
لبـــى نـــداء الظـــاعنين ومـــادعـــي
ومـــن الظنـــون الفـــاســـدات تـــوهمي
بعـــد اليقين بقـــاءه في أضلعـــي
مـــا القلـــب أوّل غـــادر فـــألـــومـــه
هـــي شيمـــة الأيـــام مـــذ خلقـــت معـــي
ملـــك إذا قـــابلـــت بشر جبينـــه
فـــارقتـــه والبشر فـــوق جبينـــي
وإذا الثمـــت يمينـــه وخـــرجـــت مـــن
أبـــوابـــه لثـــم الملـــوك يمينـــي

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ يقول:

لي في هـــوى الـــرشـــاء العـــذري أعـــذار
لم يبـــق لي مـــذ أقـــر الـــدمـــع انكـــار
لي في القـــــدود وفي لثـــــم الخدود وفي
ضـــم النهـــود لبـــانـــات وأوطـــار
هـــذا اختيـــاري فـــوافـــق أن رضيـــت بـــه
أولا فـــدعنـــي ومـــا أهـــوى واختـــار
لمنـــي جـــزافـــا وســـامحنـــي مصـــارفـــة
فـــالنـــاس في درجـــات الحب أطـــوار
وخـــل عـــذلي ففـــي داري ودائرتي
مـــن المهـــادرة قلبـــي لها دار

قلت:ويروي: «وخل غيري ففي أسري ودائرتي» والأبيات العينية من قصيدة في مدح تقي الدين، والنونية في مدح نجم الدين أيوب، والرائية في مدح شمس الدولة بن أيوب، وكان عمارة هذا عربيا فقيها أديباً، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن، ثم بمصر، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه، قال: ولي في الفرائض مصنف يقرأ باليمن.وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من أخوتي إلى زبيد فأنشدته شيئاً من شعري فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس، واستحلفني أن لا أهجو مسلما ببيت شعر، فحلفت له على ذلك ولطف الله بي فلم أهج أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح ـــ يعني ابن رزيك ـــ ببيتي شعر، فاقسم الصالح علي أن أجيبه ففعلت متأوّلا قول الله عز وجل: (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) (١٣٢) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)(١٣٣) قال: ولم يكن شيء غير هذا

وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن براً وبحراً وبجميع خفارات الطريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه، ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة، قال: وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم ابن فليتة، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم، فألزمني السفارة عنه، والرسالة منه إلى الدولة المصرية، فقدمتها في شهر ربيع الأوّل سنة خمسين، والخليفة بها يومئذ الفائزبن الظافر، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك، فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما

الحمد للعيس بعد العزم والهمم
حمدا يقوم بما أولت من النعم

لا أجحد الحق عندي للركاب يد
تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قربن بعد مزار العز من نظري
حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم
وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أني بعد زورته
ماسرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها
بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار مقدّسة
تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللنبوّة آيات تنص لنا
على الخفيين من حكم ومن حكم
وللمكارم أعلام تعلمنا
مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلى ألسن تثني محامدها
على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذاخ ترفعها
يد الرفيعين من مجد ومن هِمم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
فوز النجاة وأجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما
وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله
إلا يد الصنعتين السيف والقلم
وجوده أوجد الأيام ما اقترحت
وجوده أعدم الشاكين للعدم

قـــد ملكتـــه العـــوالي رق مملكـــة
تعير أنـــف الثـــريـــا غـــرة الشمـــم
أرى مقـــامـــا عظيـــم الشـــان أوهمنـــي
في يقظتـــي أنهـا مـــن جملـــة الحلـــم
يـــوم مـــن العمـــر لم يخطـــر على أمـــل
ولا تـــرقبـــت إليـــه رغبـــة الهمـــم
ليـت الكـواكـب تـدنـو لي فـأنظمهـا
عقـــود مـــدح فما أرضـى لكـــم كلمـــي
تـــرى الـــوزارة فيـــه وهـــي بـــاذلـــة
عنـــد الخلافـــة نصحـــا غير متهـــم
عـــواطـــف أعلمتنـــا أن بينهما
قـرابـة مـن جميـل الـرأي لا الـرحـم
خليفـــة ووزيـــر مـــدّ عـــدلهما
ظـــلاً على مفـــرق الاســـلام والأمـــم
زيـــادة النيـــل نقـــص عنـــد فيضهما
فما عســـى يتعـــاطـــى منـــة الـديـم

قال: وعهدي بالصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مرارا والاستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ثم أفيضت عليّ خلع من ثياب الخلافة مذهبة، ودفع إليّ الصالح خمسمائة دينار، وإذا بعض الاستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الامام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى وحمل المال معي إلى منزلي، واطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي، وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصالح للمجالسة، ونظمني في سلك أهل المؤانسة، وانثالت عليّ صلاته، وغمرني بره، ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي ابن الجباب، والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الانشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وغيرهم، وما من هذه الحلبة أحد الا

ويضرب في الفضائل النفسانية، والرياسة الانسانية بأوفر نصيب، ومازلت أحذو على طرائقهم حتى نظموني في سلك فرائدهم وقلت:

ليالي بالفسطاط من شاطىء مصر
سقى عهدك الماضي عهاد من القطر
ليال هي العمر السعيد وكل ما
مضى في سواها لا يعدّ من العمر
أفادتني الأقدار فيها مواليا
صفت بهم الأيام من كدر الغدر
تواصوا على أن لا ترد إرادتي
ولو سمتهم نثر الكواكب في حجري

وله في الصالح من قصيدة:

ولو لم يكن أدري بما جهل الورى
من الفضل لم تنفق لديه الفضائل
لئن كان منا قاب قوس فبيننا
فراسخ من إجلاله ومراحل

قال: وأنشدت الصالح، وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها:

دعواكل برق شمتم غير بارق
يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحي فكل من
على الأرض ينسى ذكره عند ذكره
ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى
فتجتوا على مجد المقام وفخره
ولكن سلوا منه العلى تظفروا بها
فكل امرء يرجى على قدر قدره

قال: ولما جلس شاور في دار الذهب، قام الشعراء والخطباء، ولفيف الناس إلاّ الأقل ينالون من بني رزيك، وضرغام نائب الباب، ويحيى بن

الخياط الاسفهسلار فأنشدته:

صحت بدولتك الأيام من سقم
وزال ما يشتكيه الدهر من ألم

ومنها:

زالت ليالي بني رزيك وانصرمت
والحمد والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوما وعادلهم
في صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن وبعض الظن مأثمة
بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم
من كان مجتمعا في ذلك الرخم
ولم يكونوا عدوّا ذل جانبه
وإنما غرقوا في سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمي عداك سوى
تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم

ولو شكوت لياليهم محافظة
لعهدها لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمي يوما بذمهم
لم يرض فضلك إلاّ أن يسدّ فمي
والله يأمر بالاحسان عارفة
منه وينهى عن الفحشاء في الكلم

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رزيك.

قلت: وشعر عمارة كثير حسن، وعندي في قوله:« الحمد للعيس» وإن كانت القصيدة فائقة، ثغرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا:« الحمد

لله » ولا ينبغي أن يفعل ذلك مع غير الله عز وجل، فله الحمد، وله الشكر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدّسة، وعلى ذلك اطراد استعمال السلف والخلف رضي الله عنهم.

obeikandl.com

فصل

في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

قال العماد: وأمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر واحتفلنا لهذا الأمر، وغدونا أياما، قال: ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها:

عيدان فطر وطهر
فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه
حقا هناء وأجر
وفيهما بالتهاني
رسم لنا مستمر
طهارة طاب منها
أصل وفرع وذكر
نجل على الطهر نام
زكا له منك نجر
محمودا الملك العاد
ل الكريم الأغر
وبابنه الملك الصا
لح العيون تقر
مولى به اشتد للدي
ن والشريعة ازر
نور تجلى عيانا
مادونه اليوم ستر

أضحت مساعيك غرا
كما أياديك غزر

وكـــــل قصـــــدك رشـــــد
وكـــــل فعلـــــك بـــــر
وإن حبـــــك ديـــــن
وإن بغضـــــك كفـــــر
لنـــــا بيمنـــــاك يمـــــن
كما بيسراك يسر
وللمـــــوالين نفـــــع
وللمعـــــاديـــــن ضر
وللسماء سحـــــاب
وسحـــــب كفيـــــك عشر
نـــاديـــك بـــالـــرفـــد رحـــب
نـــداك للـــوفـــد بحـــر
للبحـــر مـــدّ وجـــزر
ومـــا لجودك جـــزر
عـــدل عميـــم وجـــود
غمـــر ويسر وبشر
وفي العطيـــة حلـــو
وفي الحميـــة مـــر
قـــد استـــوى منـــك تقـــوى
الإلـــه سر وجهـــر
تقـــاك والملـــك عنـــد الـــ
ـــقياس عقـــد ونحـــر
يـــا أعظـــم النـــاس قـــدراً
وهـــل لغيرك قـــدر
وســـاهـــراً حين نـــامـــوا
وقـــائماً حين قـــروا
مـــا اعتـــدت إلا وفـــاء
وعـــادة القـــوم غـــدر

وفعلـــك الـــدهـــر غـــزو
للمشركين وقهـــــــــــــــر
فعـــــل غيرك ظلــــم
للمسلميـــــن وقســــــر
يفتر مـــــن كـــــل ثغـــر
إلى ابتســــامـــك ثغـــر
روم بـــــه وفـــــرنـــج
في سفعهـــم لـــك وتـــر
حــــرب عـــــوان وفتـــح
على مـــــرادك بكـــــر
بنـــو الاصـــافـــر مـــن خشـــ
يـــــة انتقـــامـــك صفـــر
لم يبـــق للكفـــر ظفـــر
لا كـــان للكفـــر ظفـــر
ومـــا دجـــى ليـــل خطـــب
إلاّ وعـــزمـــك فجـــر
أصبحـــت بـــالغـــزو صبـــا
وعنـــه مـــالـــك صبر
لكسر كـــــل يتيـــم
إسعـــاف بـــرك جبر
في كـــل قلـــب حســـود
مـــن حـــربـــأســـك جمر
تمل تطهير ملـــــك
لـــــه الملـــوك تخر
يـــزهـــى سريـــر وتـــاج
بـــه ودســـت وصـــدر

وكيـــــف يعمـــــل للطـــــا
هـــــر المطهـــــر طهـــــر
هـــــذا الطهـــــور ظهـــــور
على الـــــزمـــــان وأمـــــر
وذا الختـــــان ختـــــام
بمسكـــــه طـــــاب نشر
رزقـــــت عمـــــراً طـــــويـــــلا
مـــــا طـــــال للـــــدهـــــر عمـــــر

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد، محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الاعياد، ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق، وكان مسجد صلاته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر، وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفراش قاضي العسكر بعد أن صلى به وذكر، وعاد إلى القلعة طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب العطايا والإنعام على رسم الأتراك وأكابر الاملاك، ثم حضرنا على خوانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص، وما أوضح بشره، وأضوع نشره، وأضحك سنه، وأبرك يمنه، وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكر وركب، وجمل الموكب، وكان الفلك بنيره جار، والطود الثابت بمرور السحاب في وقار، وكأنه القمر في هالته، والقدر في جلالته، والبدر في دائرته سائرين بين سيارته، ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدين مودود وهو في الأكابر معدود، وكان قديما في أوّل دولته والي حلب، وقد جرّب الدهر بحنكته ولأشطره حلب، فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغترّ بأيامه: هل نكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل: هل نكون بعد شهر فانّ السنة بعيده فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإنّ نور الدين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى

العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة مع خواصه البرره، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يرنقش، وقال له: باش فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل واحتجب واعتزل فبقي اسبوعا في منزله مشغولا بنازله، مغلوبا عن عاجله، بحديث أجله، والناس من الختان لاهون بأوطارهم في الاوطان، فهذا يروح بجوده، وذلك يجود بروحه، فما انتهت تلك الافراح إلاّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصلاح.

قال: واتصل مرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيبا فما روجع وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين وكانت له صفة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بازاء تلك الصفة بيتاً من الأخشاب مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه، ويصبح ويخلو بعبادته ولا يبرح، فدفن في ذلك البيت الذي اتخذه حمى من الحمام، وأذن بناؤه لبانيه بالإهدام، قال العماد وقلت في ذلك:

عجبت من الموت كيف أتى
إلى ملك في سجايا ملك
كيف ثوى الفلك المستدير
في الأرض والأرض وسط الفلك

وله فيه رحمها الله تعالى

يا ملكا ايامه لم تزل
لفضله فاضلة فاخره
غاضت بحار الجود مذ غيبت
أنملك الفائضة الزاخره

ملكـــــــت دنيـــــاك وخلفتهـــــا
وسرت حتـــــى تملـــــك الآخـــــره

قال ابن شدّاد: وكانت وفاة نـور الدين رحمه الله بسبب خوانيق أعترته عجز الأطباء عن عـلاجها، ولقد حكى لي صلاح الديـن قال: كان يبلغنا عن نور الـدين أنه ربما قصدنا بالـديار المصرية، وكانت جماعـة أصحابنا يشيرون بأن نكاشـف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكـره بمصاف يردّه إذا تحقق قصـده، وكنت وحدي أخـالفهم وأقـول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله ورضي عنه.

قـال ابـن الاثير: وكـان نور الـديـن قـد شرع بتجهيـز المسير إلى مصر لأخذها من صـلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً في غزو الفرنـج من ناحيته، فـأرسل إلى الموصـل وديـار الجزيرة وديـار بكر يطلـب العسـاكر ليتركهـا بالشام لمنعه مـن الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكـان المانع لصلاح الديـن من الغزو الخوف مـن نور الديـن، فإنه كـان يعتقد أن نور الـدين متى زال عن طريقـه الفرنج أخذ البلاد منه، فكـان يحتمي بهم عليه، ولا يـؤثر استئصـالهم، وكـان نور الـدين لايـرى إلاّ الجدّ في غـزوهم بجهـده وطاقته، فلما رأى اخلال صـلاح الدين بالغزو، وعلم غـرضه تجهز بالمسير إليه فأتاه أمر الله الذي لا يرد.

قلت: ولـو علم نـور الدين مـاذا ذخر الله تعالى لـلاسلام مـن الفتوح الجليلـة على يد صـلاح الديـن من بعـده لقرّت عينـه، فإنـه بنى على مـا أسسه نـور الديـن من جهـاد المشركين، وقام بـذلك على أكمـل الوجـوه واتمها رحمهما الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق يعرف بـالرحبي وهو من حذاق الأطباء قـال: استدعـاني نـور الديـن في مـرضـه الذي تـوفي فيـه مع غيري مـن الأطبـاء، فدخلنـا عليه وهـو في بيـت صغير بقلعة دمشـق، وقد تمكنـت

الخوانيق منه، وقارب الهلاك فلا يكاد يسمع صوته، وكان يخلو فيه للتعبد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه، فلما دخلنا عليه، ورأينا ما به قلت: كان ينبغي أن لا يؤخر احضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض إلى هذا الحدّ فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض، وشرعنا في علاجه فلم ينفع فيه الدواء، وعظم الداء، ومات عن قريب رضي الله عنه.

قال ابن الاثير: وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلاّ في حنكه، وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتسع ملكه جدّاً فملك الموصل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام والديار المصرية، واليمن وخطب له بالحرمين الشريفين: مكة والمدينة، وطبق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله، ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمة الله تعالى عليه.

قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدّمة مفرّقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمعتهم، والاتباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه، حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث،ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثا، كما جاء في الحديث، فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره، يحب الصالحين، ويواخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بأناثهم ورزقهم، ومتى تكرّرت الشكاية إليه من أحد من ولاته، أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل، قابله باسقاط المنزلة

والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر لـه جميع ما يقصده من الأعمال، وسهـل على يديـه فتح الحصـون والقلاع، ومكـن له في البلـدان والبقاع.

ثم قال بعـد كلام كثير: ومناقبه خطيرة، ومادحه كثيره، ومـدحه جماعة مـن الشعـراء فـأكثـروا، ولم يبلغـوا وصـف آلائه بـل قصروا، وهـو قليـل الابتهاج بـالشعر زيـادة في تواضعه لعلـوّ القدر، ومـولده على مـا ذكر لي كاتبـه أبو اليسر شاكـر بن عبد الله وقت طلـوع الشمس من يـوم الأحد سابع عشر شوّال سنة إحـدى عشرة وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنـة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشـق، ثم نقل إلى تـربة تجاور مـدرسته التـي بنـاها لأصحـاب أبي حنيفة رضي الله عنـه جوار الخواصين في الشارع الغربي رحمه الله.

قلت وفي هذه المدرسة يقول العرقلة:

ومـــدرســـة سيـــدرس كـــل شيء
وتبقـــى في حمى علـــم ونســـك
تسـوّع ذكـرهـا شرقـا وغـربـا
بنـور الـديـن محمـود بـن زنكـي
يقـول وقـولـه حـق وصـدق
بغير كنـايـة وبغير شـك
دمشـق في المدائن بيـت ملكـي
وهـذي في المدارس بيـت ملكـي (١٣٤)

ولما اشتهر مـن قلة ابتهاجـه بالمدح لما علم مـن تزايد الشعـراء، وهي طريقة عمر بـن عبد العزيز زاهد الخلفاء قال يحيى بـن محمد الوهراني في مقامـة له وقد سئـل في بغداد عن نور الـدين: «هو سهـم للدولة سـديد وركـن للخلافـة شديـد، وأمير زاهد، وملـك مجاهد، تسـاعده الأفـلاك، وتعضده الجيوش والأمـلاك، غير أنه عرف بالمرعى الوبيـل لابن السبيل،

وبالمحل الجديب للشاعر الاديب فما يرزى ولا يعزى، ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى [١٣٥] واياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سلطاننا زاهدوالناس قد زهدوا
له فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة
من المعاصي وفيها الجوع والعطش ١٣٦

قلت: رحمه الله ما كان يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن محيريز وهو من سادات التابعين بالشأم قال يعقوب بن سفيان الحافظ: حدّثنا ضمرة عن الشيباني قال: كان ابن الديلمي من أنصر الناس لأخوانه فذكر ابن محيريز في مجلسه، فقال رجل: كان بخيلا، فغضب ابن الديلمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، بخيلاً حيث تحبون [١٣٧]

وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل في ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله:

في كل عام للبرية ليلة
فيها تشب النار بالايقاد
لكن لنور الدين من دون الورى
ناران نار قرى ونار جهاد
أبداً يصرّفها نداه وبأسه
فالعام جمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيد منة
أبهى من الأطواق في الاجياد
أعلى الملوك يداً وأمنعهم حمى
وأمدّهم كفاً ببذل تلاد
يعطي الجزيل من النوال تبرعاً
من غير مسألة ولا ميعاد

لازال في سعـــــــدوملـــــــك دائم
مـــا دامـــت الـــدنيـــا بغير نفـــاد (١٣٨)

وقد تقدّم من شعر ابن منير، وابن القيسراني، والعماد الكاتب وغيرهم من مـدح نور الدين بالكرم والجود مـا قليل منه يـرد قول الوهـراني وابن منقـذ، على أن ابن منقـذ قـد رددنا شعـره بشعـره كما تراه وإنما الشعـراء وأكثر النـاس كما قال الله تعالى في وصف قـوم: (فإن أعطوا منهـا رضوا وإن لم يعطوا منـه إذا هم يسخطـون) (١٣٩) وما كـل وقت ينفـق العطاء، ويفعل الله ما يشاء.

فصل

قال ابن الاثير: لما توفي نـور الدين جلس ابنه الملك الصـالح اسماعيل في الملـك، وحلـف لـه ولم يبلـغ الحلم، وحلـف لـه الأمـراء والمقـدّمـون بدمشـق، وأقام بها وأطـاعه النـاس في سائر بـلاد الشام وصـلاح الديـن بمصر، وخطـب له بها وضرب السكـة بـاسمه فيهـا، وتـولى تربيتـه الأمير شمس الدين محمد بن المقدّم.

قـال العماد: وأخـرجـوا يـوم وفـاة نور الـديـن ولـده الملـك الصـالـح اسماعيـل، وقـد أبـدى الحزن والعـويـل. رهـو مجزوز الـذوائب، مشقـوق الجيب، حـاسر حاف، مما فجأه وفجعـه من الريب، وأجسـوه في الإيوان الشمالي من الدست والتخت الباقي من عهد تاج الدولة تتش، فاستوحى كـل قلب حـزنه واستـوحـش، فوقـف النـاس يضطرمـون، ويضطربـون، ويتلهفون، ويلتهبـون، ولما كفن بحلـة الكرامـه، ودفن في روضـة بابها إلى باب رضوان من دار المقامه، وقضوا الجزع، وقـوّضوا الفزع، وغيبوا الدمعه، واحضروا الربعة، حضر القـاضي كمال الدين، وشمس الديـن بن المقدّم،

وجمال الدولة ريحان، وهو أكبر الخدم، والعدل أبو صالح بن العجمي أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقده، وأن ابن المقدّم مقدّم العسكر وإليه المرجع والمصدر.

قال : وأنشأت في ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين ترجمته «اسماعيل بن محمود».

وفيه: « أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، ندب الشام، بل الاسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد، مقتني فضيلته، ومؤدّي فريضته، ومحيي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره، وما هاهنا ما يشغل السر ويقسم الفكر إلاّ أمر الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلاّ لمثل هذا الحادث الجلل، والصرف الكارث المذهل، فقد ادّخره لكفايات النوائب، وأعدّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكنه قوة لعضده، فما فقد رحمه الله إلاّ صورة، والمعنى باق والله تعالى حافظ لبيته واق، وهل غيره دام سموه من مؤازر، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر، وقد عرفناه المقترح ليروض برأيه من الأمر ما جمح، والأهم شغل الكفار عن هذه الديار بما كان عازما عليه من قصدهم، والنكاية فيهم على البدار، ويجري على العادة الحسنى في أحياء ذكر الوالد بتجديد ذكرنا راغبا في اغتنام ثنائنا وشكرنا».

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتابا بالمثال الفاضلي فيه: « ورد خبر من جانب العدوّ اللعين عن المولى نور الدين أعاذنا الله فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتدّ به الأمر، وضاق به الصدر، وانقصم بحادثه الظهر، وعز فيه التثبت، وأعوز

الصبر، فإن كان والعياذ بالله قد تم، وخصه الحكم الذي عم، فللحوادث تدخر النصال، وللأيام تصطنع الرجال، وما رتب الملوك ممالكها إلاّ لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلاّ لتؤدي حقها يوم حصادها، فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي، فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، واعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان، ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله، وقائم لا نسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أتيت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يد على من ناوأه، وسيف على من عاداه، وإن اسفر الخبر عن معافاه، فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب».

قال العماد: وورد كتاب صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزيا لابن نور الدين وفي آخره: « وأما العدوّ خذله الله فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليل لنهاره، وسيل لقراره إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقفه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقل فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم، وأشبه يوم الخادم أمسه في الخدمة، ووفى ما لزمه من حقوق النعمة، وجمع كلمة الإسلام، عالما أن الجماعة رحمه ، والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النعماء الراهنة لديه، ويجعل للاسلام واقية باقية عليه، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق سلطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده،

وييسر منال كل أمر صالح، وتقريب بعيده إن شاء الله تعالى.

ومن كتاب آخر: « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرض لمراسمها، والرفع لكلمتها، والإيالة لعسكرها، والتحقق بخدمتها في بواطن الأحوال وظواهرها، والترقب لأن يؤمر فيمتثل، ويكلف فيحتمل، وأن يرمى به في نحر العدوّ فيتسدّد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده».

قال العماد: ولما توفي نور الدين اختل أمري، واعتل سري، وعلت حسادي، وبلغ مرادهم أضدادي، وكان الملك الصالح صغيراً فصار العدل ابن العجمي له وزيراً، وتصرّف المتحالفون في الخزانة والدولة كما أرادوا، وولوا وصرّفوا ونقصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة محروم الدعوة من الإجابة، ومما نظمته في مرثية نور الدين قصيدة منها:

لفقد الملك العا
دل يبكي الملك والعدل
وقد أظلمت الآفا
ق لاشمس ولا ظل
ولما غاب نور الدي
ن عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخي
ر وزاد الشر والمحل
ومات البأس والجو
دوعاش اليأس والبخل
وعز النقص لما هـ
ـن أهل الفضل والفضل
وهل ينفق ذو العل
م إذا ما نفق الجهل
وما كان لنور الدي
ن لولا نجله مثل

فصل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانياس، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم وبان اليأس، وذلك أن شمس الدين بن المقدّم خرج وراسل الفرنج، وخوّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم، وتكلموا في الهدنة، وقطع مواد الحرب والفتنه، وحصلوا بقطيعة استعجلوها، وعدّة من أساراهم استطلقوها، وتمت المصالحة، وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كتباً دالة على التوبيخ والملام، ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، يخبره فيه أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهز وخرج وسار أربع مراحل ، « ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من أطلق لسانه الذي تغمد له السيوف، وتجرّد، وقام في سبيل الله قيام من يقطع عادية من تعدّى وتمرّد»، وفي آخره: « وكتب من المنزل بفاقوس، والفجر قد هم أن يشق ثوب الصباح، لولا أن الثريا تعرّضت تعرّض أثناء الوشاح، وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة، بلغه الله فيه أمله، وقبل عمله بالغا أسنى المراد وأفضله».

وقال ابن الاثير : ولما توفي نور الدين قال الأمراء منهم شمس الدين ابن المقدّم، وحسام الدين الحسين بن عيسى الجرّاحي وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوّابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله، ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعة الملك الصالح، ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لأن له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح، فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا، قال: فلم يمض

غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يهنيه بالملك ويعزيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية، وعليها اسمه ويعرّفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين، وملك الديار الجزرية، ولم يرسل من مع الملك الصالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته، ويمنعه، وكتب إلى الأمراء يقول:« إن الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده، والقيام بخدمته سواي وأراكم قد تفرّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصل إلى خدمته وأجازي انعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأقابل كلا منكم على سوء صنيعه واهمال أمر الملك الصالح ومصالحه، حتى أخذت بلاده».

فأقام الصالح بدمشق، ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي بن الداية، فإنه كان أكبر الأمراء النورية، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه، وكان هو وأخوته بحلب وأمرها إليهم وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم:« إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويسترد ما أخذ منه وإلا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب، ولا نقوى على منعه». فلم يرسلوه ولا مكنوه من قصد حلب.

قال: وكان نور الدين من قبل أن يمرض، قد أرسل إلى البلاد الشرقية

كالموصل وغيرها استدعى العساكر منها فسار سيف الدين، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحن إلى الخابور، فاستولوا عليها، وسار هو إلى حران فحصرها عدّة أيام، ثم أخذها وملك الرها والرقة وسروج، واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر، فقال له فخر الدين عبد المسيح ـــ وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدين، وقصد سيف الدين ظناً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين على ما ذكرناه أوّلاً ـــ فلم يجن ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء: ليس بالشام من يمنعك، فاعبر الفرات وأملك البلاد، فأشار أمير آخر معه، وهو أكبر أمرائه: قد ملكت أكثر من والدك والمصلحة أن تعود، فرجع إلى الموصل.

فصل

قال ابن الاثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جعل بقلعة الموصل لما ملكها دزداراً له وهو سعد الدين كمشتكين بعض خدمه الخصيان، فلما سار سيف الدين إلى الشام كان في مقدّمته على مرحلة، فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب وأرسل سيف الدين في أثره فلم يدرك، فنهب بركه ودوابه، وسار إلى حلب وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وأخوته، واستقر بينهم وبينه أن يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح، فسار إلى دمشق فأخرج إليه ابن المقدّم عسكراً لينهبه، فعاد منهزما إلى حلب فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أخذ منه، وجهزه وسيره إلى دمشق، وعلى نفسها تجني براقش، فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها فلما وصلها

وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية وأخوته، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب.

قال ابن الاثير: ولو لا مرض شمس الدين لم يتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء، وكان أمر الله قدراً مقدوراً فاستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح، فخافه ابن المقدّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، وكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق، فيمنع عنها ويقصده ابن عمه من وراء ظهره فلا يمكنه الثبات، فراسل الملك الصالح وصالحه على اقرار ما أخذ من يده، وبقي الملك الصالح بحلب، وسعد الدين بين يديه يدبر أمره، وتمكن منه تمكناً عظيماً يقارب الحجر عليه.

قال العماد: كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه واستأذن في الوصول إلى الشام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، وخرج وسار مرحلتين، وسمع النعي، فأغذّ السير والسعي، ونجا بماله وبحاله، وندم صاحب الموصل على الرضى بترحاله، وكانت عنده بوفاة عمه بشاره، وظهرت على صفحاته منها أماره، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مذكيا، وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، واسقاط المكوس، واعدام اقساط البوس، فنودي في الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة في الشرب جهاراً ليلاً ونهاراً، وزال العرف وعاد النكر، وأنشد قول ابن هاني: « ولا تسقني سراً فقد أمكن الجهر».

وقيل أخذ المنادي على يده دنا وعليه قدح وزمر، وزعم أنه خرج بهذا أمر فلا حرج على من يغني ويشرب، وعادت الضرائب، وضربت العوائد، فأما كمشتكين فإنه وصل إلى حلب بعد أن جرى ما جرى،

وتمثل:« عنده الصباح يحمد القوم السرى»، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين عليّ بن الداية وأخوته أخوه مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين وكان مجد الدين أبو بكر أخو رضاع نور الدين، وقد تربى معه ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ففوّض إلى مجد الدين جميع مقاصده من طريفه وتالده، وحكمه في الملك، ونظمه في السلك، فلا يحل ولا يعقد إلاّ برأيه، وكانت حصونه محصنة، وهو يسكن عنده في قلعة حلب، والحاضر عنده صباحا ومساء إذا طلب، وشيزر مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر وتل باشر مع سابق الدين عثمان، وحارم مع بدر الدين حسن، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوّابه فيها، وهو يصونها ويحميها، ولما توفي جرت أخوته في القرب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدولة وأعضادها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأمجادها وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكوا في أنهم يكفلون ولده ويربونه ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه، فأقام شمس الدين علي وهو أكبرهم وأوجههم، ودخل

قلعة حلب وبها والياشاذبخت، وسكنها وأسر مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع واتفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصالح، وانفذ أخاه سابق الدين عثمان وكان قليل الخبرة بعيداً من الدهاء، فاستقر الأمر على أن يحملوا الملك الصالح إليه، ويقدموا به عليه، وهو يتسلم ممالكه، ويكون أتابكه، ووصل كمشتكين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبروه من المرام، وسار الصالح ومعه كمشتكين والعدل ابن العجمي واسماعيل الخازن، فبغتوا أخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابن الخشاب أبو الفضل مقدّم الشيعة فسفكوا دمه، وأقام شمس الدين ابن المقدّم بدمشق على عساكرها مقدّماً، وفي مصالحها محكماً، وجمال الدين ريحان والي القلعة والشحن من قبله والأمر إليه بتفصيله وجمله، والقاضي كمال الدين الشهرزوري الحاكم النافذ حكمه، الصائب سهمه، الثاقب نجمه، وكان مسير الملك الصالح من دمشق في الثالث

والعشرين من ذي الحجة، وغاظ صلاح الدين ما فعل بأخوة مجد الدين.

وقال ابن أبي طي الحلبي: لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته، واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح بن نور الدين، وكان يومئذ صبياً، وأجمعوا على منابذة الملك الناصر، وقبض أصحابه الذي بالشام، ومصالحة الفرنج على يد ابن المقدّم شمس الدين مقدّم العساكر، وتم ذلك واستقر، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له، وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق، فخرج ابن المقدّم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، وراسل الفرنج في الهدنة فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجل حملها، وتم أمر الصلح، وعادت الفرنج إلى بلادها، وابن المقدّم إلى دمشق، واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشام، وعلم ضعفهم، فراسل ابن المقدّم وغيره من الأمراء بانكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عصرون: « ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقية بلاد المسلمين ما دخلت في العقد ولا انتظمت في سلك هذا القصد، والعدوّ لهما واحد، وصرف مال الله الذي أعدّ لمغنم الطاعة ومصلحة الجماعه في هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأمه، وكان مذخوراً لكشف الغمه، فصار عونا، وإن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديده وشوكتهم حديده، دفعوا في القطيعه، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعه، فلما بلغنا هذا الخبر وقفنا به بين الورد والصدر، وإن أتممنا ظن بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد، فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمر ربما عجز فيه عن الاستدراك، وإن العدوّ طالب لا يغفل، وجاد لا ينكل، وليث لا يضيع الفرصه، مجدّ لايميل إلى الرخصه، فإن كانت الجماعة ساخطين فتظهر امارات السخط والتغيير ولا تمسك

في الأول فتعجز عن الأخير، لاسيما ونحن نغار لله ونغير، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدوّ ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته، وثرت به ثروته، وانبسطت به خطوته فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون لايمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه».

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النوري، وكان شمس الدين علي أخو مجد الدين بن الداية إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية، وكان بيده ويد أخوته جميع المعاقل التي حول حلب، فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد إلى القلعة، وكان مقعداً ، واضطرب البلد، ثم سكنه ابن الخشاب فامتنع من الصعود إليهم، وتردّدت بينهم الرسالة وتحزب الناس بحلب أهل السنة مع بني الداية، والشيعة مع ابن الخشاب، وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن

الخشاب فملكوها ونهبوها واختفى ابن الخشاب، واتصلت هذه الأخبار بمن في دمشق فأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب في الثالث والعشرين من ذي الحجة، وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشتكين وجرديك واسماعيل الخازن، وسابق الدين عثمان بن الداية، وقد وكلت الجماعة به، وهو لا يعلم، وساروا إلى حلب، وخرج الناس إلى لقائهم وكان حسن قد رتب في تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح ويصلبهم، فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدّم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فأركبه خلفه رديفا، وقبض سابق الدين أخوه في الحال، وتخطفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم وساروا مجدين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها وقبضوا على شمس الدين على بن الداية من فراشه وحمل إلى بين يدي الملك الصالح، فاستقبله أحد مماليك نور

الدين المعروف بالجفينة فركله برجله ركلة دحابها على وجهه، فانشقت جبهته، ثم صفدوا جميعا وحبسوا في جب القلعة، وقبضوا على جميع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

قلت: وفي آخر هذه السنة توفي مرّي الفرنجي الملك الذي كان حاصر القاهرة، وأشرف على أخذ الديار المصرية، وفي كتاب فاضلي: « ورد كتاب من الداروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مري ملك الفرنج لعنه الله، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً، وأقدمه على نار (تلظى لايصلاها إلا الأشقى) (١٤٠)

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

قال ابـن أبي طي: ففي أوّلها ضمن القطـب ابن العجمي أبو صـالح، وابن أمين الدولـة لجرديك إن قتل ابن الخشاب، ردّوا عليـه جميع ما نهب له في دار ابن أمين الدولة، فدخل على الملك الصالح، وتحدّث معه وأخذ خاتمه أمانـا لابن الخشاب، ونودي عليه فحضر وركـب إلى القلعة، فقتل وعلق رأسه على أحد أبراج القلعة .

وبقـي الملـك الصـالـح في قلعة حلـب، ومضـى العماد الكـاتـب إلى الموصل، قال:« وعـزمت على خدمة سيف الـدين صاحبها وقـد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات، ومضى إليه ابـن العجمي للاصلاح فأصلح بين ابني العم، وعلـق رهن أخوة مجد الدين في الاعتقـال، وضيقوا عليهم في القيـود والأغلال،وألـزموهـم بتسليم الحصـون، وتقديـم الرهـون إلى أن غصبوا دورهم، وخربوا معمورهـم».

قال: وكـان الموفق خـالد بن القيسراني قـد وصل ونحـن بدمشـق من مصر، فلزم داره، ولم يدخـل مع القوم، فأمـا صلاح الدين فـإنه اعتقد أن ولد نـور الديـن يتولاه بعده أخـوة مجد الدين، فلما جـرى ما جـرى ساءه ذلك وقـال: أنا أحق بـرعي العهود، والسعـي المحمود فإنـه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعه، وضـاقت المناهج المتسعه، وانفردت مصر عـن الشـام، وطمع أهـل الكفـر في بـلاد الاسلام، وكتـب إلى ابـن المقدّم ينكر ما أقدموا عليه مـن تفريق الكلمة، وكيف اجتروا على أعضاد الدولـة وأركانها، بـل أهلها وأخـوانها، وإنه يلـزمه أمـرهم وأمـرها ويضره ضرهم وضرها، فكتب ابن المقدّم إليه يردعـه عن هذه العزيمه، ويقبح له استحسان هذه الشيمة ويقول له:«لايقال عنك إنك طمعت في بيت من غـرسك، وربـاك وأسسـك، وأصفـى مشربك، وأضفـى ملبسـك، وأجلى سكـونـك لملك مصر، وفي دستـه أجلسـك، فما يليـق بحالـك، ومحاسـن

أخلاقك وخلالك غير فضلك وأفضالك». فكتب إليه صلاح الدين بالانشاء الفاضلي « إنا لانؤثر للاسلام وأهله إلا ما جمع شملهم، وألف كلمتهم، وللبيت الأتابكي أعلاه الله إلا ما حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاء، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة، وبالجملة أنا في واد والظانون بنا ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولمن يبعدنا عنه مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولمن ألقي السلاح إنك جارح».

فصل

قال العماد: ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر فاعترضه أمران: أحدهما وصول اسطول صقلية إلى الاسكندرية وادراكه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه، أما وصول الاسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهزم في أول المحرم سنة سبعين، ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشام يشرح الحال، وحاصله أن أوّل الأسطول وصل وقت الظهر، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر، وروع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربيه، وهدّد به في الجزائر الروميه صاحب قسطنطينيه، فشوهد في الثغر من وفور عدّته، وكثرة عدّته، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتدّ به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البر، ثم أشير عليهم أن يقربوا من السور فأمكن الأسطول النزول فاستنزلوا خيولهم من الطرائد، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل، وكانت عدّة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل

الخيل، وكان معهم مائتا شيني في كل شيني مائة وخمسون راجلاً، وكانت عدّة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدّة المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركباً، وفيها من الراجل المتفرق وغلمان الخيالة، وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية مايتمم خمسين ألف رجل، ولما تكاملوا نازلين على البر خارجين من البحر، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور، وفقد من أهل الثغر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس، واستشهد محمود بن البصار بسهم جرخ وجذفت مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء، وكان به مراكب مقاتله، ومراكب مسافره، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها، واتصل القتال إلى المساء فضربوا خيامهم بالبر، وكان عدّتهم ثلاثمائة، فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية، وتعجب أصحابنا من شدّة أثرها وعظم حجرها، وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السور، ولجوا في القتال عامة النهار المذكور، وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدوّ على جناح الطائر، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين اسكندرية ودمياط، احترازاً عليها واحتياطاً في أمرها وخوفاً من مخالفة العدوّ إليها، واستمرّ القتال وقدّمت الدبابات وضربت المنجنيقات، وزاحمت السور إلى أن صارت منه بمقدار أماج البحر، وأهاج الدور، فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قبالتها من السور ويتركوها معلقة بالقشور، ثم فتحوا الأبواب وتكاثر صالح أهل الثغر من كل الجهات فأحرقوا الدبابات المنصوبة، وصدّقوا عندها من القتال، وأنزل الله على المسلمين النصر، وعلى الكفار الخذلان والقهر، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء، وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم وفتر

حربهم، وأحرقت آلات قتالهم، واستمر القتل والجراح في رجالهم، ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدوّ على نية الهرب والمبادرة، ثم كر المسلمون عليهم بغتة، وقد كاد يختلط الظلام فهاجموهم في الخيام، فتسلموها بما فيها وفتكوا في الرجالة أعظم فتك، وتسلموا الخيالة، ولم يسلم منهم إلاّ من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها فولت بقية المراكب هاربة، وجاءتها أحكام الله الغالبه، وبقي العدوّ بين قتل وغرق، وأسر وفرق، واحتمى ثلاثمائة فارس منهم في رأس تل، فأخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله، واقلع هذا الاسطول عن الثغر يوم الخميس.

وذكر ابن شدّاد أن نزول هذا العدوّ كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ستمائة قطعة ما بين شيني وطراده وبطسة وغير ذلك .

فصل

وأما نوبة الكنز فقال ابن شدّاد: الكنز انسان مقدّم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه، ويخيل لهم أنه يملك البلاد، ويعيد الدولة مصرية، وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير، وجمع وافر من السودان، وقصد قوص وأعمالها، فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرّد له عسكراً عظيماً شاكين في السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية، وخافوا على فوت ذلك منهم، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف

فكسرهم،وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل شافتهم، وأخمد نائرتهم، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين، واستقرّت قواعد الملك.

قال العماد: وفي أوّل سنة سبعين مستهلها قام المعروف بالكنز في الصعيد، وجمع من كان في البلاد من السودان والعبيد، وعدا ودعا القريب والبعيد، وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين أبي الهيجاء السمين، ففتك به وبمن هناك من المنقطعين، فغارت حمية أخيه، وثارت للثأر، وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدّة من أمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طود، فاحتمت عليهم وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها وباءت بعد عزها بذلها، ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوءه وسودانه، فسفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وارتقب دماء سوده، وهجم غابه على أسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطل دمه ولم ينتطح فيه عنز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سلم نفاق، والله لناصري دينه ناصر وواق.

وقال ابن أبي طي: واتفق أيضاً أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود رجل يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قوص ونهبها وخربها، وأخذ أموال الناس، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، وكان السلطان قد استنابه بمصر، فجمع له العساكر وأوقع به وبدّد شمله، وفض جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قصد بلد طود، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

فصل

في توجه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين اخر شهر ربيع الأول

قال العماد: لما خلا باله مما تقدّم ذكره تجهز لقصد الشام، فخرج إلى البركة مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس ثالث عشر ربيع الأوّل، وكانت رسل شمس الدين صاحب بصرى صديق ابن جاولي، وشمس الدين بن المقدّم عنده تستوري في الحث والبعث زنده، وتستقدمه وجنده، وسار على صدر وائله، ووصل السير بالسرى حتى أناخ على بصرى بصيرا بالعلى نصيرا للهدى، فاستقبله صاحب بصرى وشدّ أزره، وسدّد أمره، واستضاف إلى بصرى صرخد، وتفرد بالسبق إلى الخدمة وتوحد، وسار في الخدمة معه إلى الكسوة، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين انسلاخ الشهر، وسار في موكب قوي بالعدد والعدد وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الاطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق، وخرقها وكأن الله تعالى له خلقها، ودخل إلى دار العقيقي مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبيه، فراسله حتى استمالة، وأغزر له نواله، وتملك المدينة والقلعة، ونزل بالقلعة سيف الاسلام أخو السلطان صلاح الدين، وملك ابن المقدّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طلبته التي أشار إليها ونص عليها، وأظهر أنه قد جاء لتربية الملك الصالح، وحفظ ماله من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحق بصيانة حقه، واجتمع به أعيانها، وخلص لولاية اسرارها واعلانها، وأصبح وهو سلطانها، وزاره القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري فوفاه حقه من الإحترام وأوفر له حظ التبجيل والاعظام، ونفذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر.

وفي بعضها:« يـوم وصولنا إلى بصرى وقبلـه وفدت وهاجـرت وتزاحمت وتكاثـرت وتوافـت الأمراء والأجنـاد الأتراك والأكـراد والعربـان، وراجل الأعمال، وأعيان الـرجال، وورد كتـاب من دمشـق بعد كتـاب، وكل مخبر وذاكر، وهو غائب بكتـابه حاضر، يذكر أن البلاد ممكنـة القياد مذعنة إلى المراد، وأما الفرنج خذلهم الله فإنا في هذه السفـرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنـا بها إقامة الحاضر المتخيم، وعيونهم متناومـة، وجزنا وأنوفهم راغمـة، ووطئنا ورقابهم صغر، ومـررنا وعيشهم مر، والله يـزيدهم ذلاً، ويجعل عداوة الاسلام في صدورهم غلا، وفي أعناقهم غلاً».

وفي كتـاب آخـر: «وكـــان رحيلنـا مـن بصرى يـوم الأربعـــاء الـرابـع والعشرين مـن ربيع الأوّل، وقـد توجـه صاحبهـا بين أيدينـا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها، ثـم لقينا الأجل ناصر الدين ابـن المولى أسد الدين رحمة الله عليه، وأدام نعمته، والأمير سعد الدين ابـن أنر في يوم السبت السابع والعشريـن، ونزلنـا يوم الأحـد بجسر الخشـب، والأجناد الـدمشقية إلينـا متـوافيه، والـوجوه على أبـوابنا مترامية، ولم يتـأخر إلاّ مـن أبقى وجهـه، وراقب صـاحبه، ومن اعتقـد بالقعود أنه قـد نظر لنفسه في العـاقبه، ولما كان يـوم الاثنين التاسع والعشريـن من الشهر ركبنـا على خيرة الله تعالى، وعـرض دون الدخـول عدد مـن الرجـال فدعستهـم عساكـرنا المنصـورة وصدمتهم وعـرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم، ودخلنـا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليـه قريرة عيوننا مستقرا سكون الـرعية وسكوننا، وأذعنا في أرجـاء البلد النـداء بإطابـة النفوس، وإزالـة المكوس، وكـانت الولاية فيهـم قد ساءت وأسرفت، واليـد المتعدّية قد امتـدّت إلى أحوالهم وأجحفـت، فشرعنـا في امتثـال أمـر الشرع برفعهـا، وإعفـاء الأمـة منهـا بوضعها».

قـال ابـن الاثير: لما خـاف مـن بـدمشـق مـن الأمـراء أن يقصـدهـم كمشتكين والملك الصـالح من حلـب فيعاملهم بما عامـل به بني الـداية

راسلوا سيف الدين غازي ليسلموها إليه، فلم يجبهم فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدّم، ومن أشبه أباه فما ظلم، فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء، ودخلها واستقر بها، ولم يقطع خطبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه واستردّ له بلاده التي أخذها ابن عمه، وجرت أمور آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصالح على ما بيده.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لاينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدوّ الله عن البلاد، تجهز للخروج إلى الشام، إذ هو أصل بلاد الاسلام، فتجهز بجمع كثير من العساكر، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح، واختلت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعض على جماعة منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسببا لتنفير قلوب الناس عن الصبي، فاقتضى الحال أن كاتب ابن المقدّم صلاح الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصالح فيكون هو الذي يتولى أمره ويرب حاله، فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر، وكان أوّل دخوله إلى دار أبيه واجتمع الناس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالا طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين، وأظهروا الفرح به وصعد القلعة، واستقر قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جمادى الأولى ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سلخ جمادى المذكور وهي الدفعة الأولى.

وقال ابن أبي طي: بلغ السلطان أن ابن المقدّم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب الموصل

واستيلائه على البلاد الشرقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه، وقيل إن ابن المقدّم كاتب السلطان ودعاه إلى الخروج، وقيل إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، وبجواب ممض ورد من ابن المقدّم، ولما تيقن ابن المقدّم خروج السلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها، نشر علم العدل والإحسان، وعفى أثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات والمون والضرائب المحرّمات.

قلت: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقد قصيدة بعد مصاف عسقلان أوّلها:

تهنّ يا أطول الملوك يدا
في بسط عدل وسطوة وندى
أجرا وذكرا من ذلك الشكر في الـ
ـدنيا ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذي صنعت فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدى وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من الـ
ـملوك في عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فالملائكة الـ
ـأبرار تلقاك ملتقى حمدا
فهو فقير إليك يأمل أن
تصلح بالعدل منه ما فسدا

والله يعطيك فيه عاقبة النصر كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى وألهمك العدل وأعطاك ما ملكت سدى (١٤١)

ومدح وحيش الأسدي صلاح الدين عند أخذه دمشق بقصيدة أوّلها:

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدنى فريسته الأيام أن وثبا
رأيت جلق ثغراً لا نظير له
فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قلّ ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد
أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الاسلام فاتضحت
سبيله وأهان الكفر والصلبا
ويوم شاور والايمان قد هزمت
جيوشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد
فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه
زهداً ويستصغر الدنيا إذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلا في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته حقبا

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماه وحصار حلب

قال ابن أبي طي: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر، وميل الناس إليه وإنعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحملوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملكتك مصر بأيدينا والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردّت عنك تلك العساكر هي تردّك، وعما تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين، وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والاحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرسالة منه، فلما فاه ابن حسان بتلك الشقاشق الباطلة، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لم يعره السلطان رحمه الله طرفا ولا سمعا، ولا ردّ عليه خفضا ولا رفعا، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا، وترك جوابه احسانا وتجافيا، وجرى في ميدان أريحيته واستن في سنن مروّته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق وقال له: يا هذا اعلم إنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الاسلام، وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك ودون ما ترومه خرط القتاد، وفت الأكباد، وإيتام الأولاد، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله وأومى إلى رجاله باقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه، ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجهاً إلى حمص، فتسلم البلد وقاتل القلعة، ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكل بها

من يحصرها ورحل إلى جهة حماه فلما وصل إلى الرستن، خرج صاحبها عز الدين جرديك، وأمر من فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره، وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن، وأقام عنده يوما وليله، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماه وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السلطان إلى مراده، وسار إلى حلب، وبقي أخو جرديك بقلعة حماه.

قال: وسار جرديك إلى حلب وهو ظان أنه قد فعل شيئاً، وحصل عند من بحلب يدا، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتهمه الامراء بالمخامرة، وردّوا مشورته، وأشاروا بقبضه فامتنع الملك الصالح ولج سعد الدين كمشتكين في القبض عليه، فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد، وحمل إلى الجب الذي فيه أولاد الداية.

قال: ولما قدّم جرديك وشدّ في وسطه الحبل ودلي إلى الجب، وأحس به أولاد الداية قام إليه منه حسن وشتمه أقبح شتم وسبه ألأم سب، وحلف بالله إن أنزل إليهم ليقتلنه، فامتنعوا من تدليته، فأعلم سعد الدين كمشتكين فحضر إلى الجب وصاح على حسن وشتمه وتوعده، فسكن حسن وأمسك وأنزل جرديك الجب، فكان عند أولاد الداية، واسمعه حسن كل مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك، وكانوا تعصبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب قصيدة منها:

بنو فلانة أعوان الضلالة قد
قضى بذلهم الأفلاك والقدر
واصبحوا بعد عز الملك في صفد
وقعر مظلمة يغشى لها البصر

وجـرد الـدهـر في جـرديـك عـزمتـه
والـدهـر لا ملجـأ منـه ولا وزر

قال: ولم يـزل السلطان مقيما على الـرستن، ثم طـال عليه الأمـر فسار إلى جباب التركمان فلقيـه أحـد غلمان جـرديـك وأخبره بما جـرى على جرديك مـن الاعتقال والقهر، فرحـل السلطان من ساعتـه عائداً إلى حماه وطلب مـن أخي جـرديك تسليـم حماه إليه، وأخبره بما جـرى على أخيه، ففعل وصعـد السلطان إلى قلعة حماه واعتبر أحـوالها وولاها مبارز الـدين علي بن أبي الفـوارس، وذلك مستهـل جمادى الآخرة، وسـار السلطان إلى حلـب، ونزل على أنـف جبل جـوشن فوق مشهـد الـدكة ثـالث الشهـر، وامتدّت عساكـره إلى الخناقية وإلى السعدي، وكان مـن بحلب يظنون أن السلطان لا يقـدّم عليهم، فلـم يرعهـم إلا وعساكـره قد نـازلت حلـب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامـه قد نشرت فخافوا من الحلبيين أن يسلمـوا البلد كما فعـل أهـل دمشق، فـأرادوا تطييـب قلـوب العامـة فأشير على ابـن نور الـدين أن يجمعهـم في الميدان ويقبـل عليهم بنفسـه ويخاطبهمم بنفسه: أنهم الوزر والملجأ، فـأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق، فـاجتمعوا حتى غص الميدان بالنـاس، فنزل الصالح من باب الـدرجة وصعد من الخندق، ووقـف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهـل حلب أنا ربيبكم ونـزيلكم واللاجىء إليكـم، كبيركم عندي بمنـزلة الأب، وشابكم عنـدي بمنزلة الأخ، وصغيركـم عندي يحل محل الولـد، قال: وخنقته العبرة وسبقتـه الدمعـه، وعلا نشيجه، فـافتتن النـاس، وصـاحـوا صيحـة واحدة، ورمـوا بعمائمهـم، وضجـوا بـالبكـاء والعـويل وقـالوا: نحـن عبيـدك وعبيد أبيـك، نقـاتل بين يـديك ونبـذل أموالنا وأنفسنـا لك، وأقبلوا على الدعـاء له والترحم على أبيه، وكـانوا قد اشترطوا على الملـك الصالـح أنه يعيـد إليهم شرقيـة الجامع يصلـون فيها على قاعدتهم القديمه، وأن يجهـر بحي على خير العمل والأذان والتذكير في الاسـواق وقـدّام الجنـائز بأسماء الأئمـة الاثنـي عشر، وأن يصلـوا على

أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكـون عقود الأنكحـة إلى الشريف الطـاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، وأن تكون العصبيـة مرتفعة، والناموس وازع لمن أراد الفتنة وأشيـاء كثيرة اقترحوها، مما كـان قد أبطله نور الـدين رحمه الله، فأجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طـيّ: فأذن المؤذنون في منارة الجامـع وغيره بحي علي خير العمل، وصلى أبي في الشرقيـة مسبلاً، وصلى وجوه الحلبيين خلفـه، وذكروا في الأسـواق وقـدّام الجنـائز بـأسماء الأئمـة، وصلـوا على الأمـوات خمس تكبيرات، وأذن للشريـف في أن تكون عقـود الحلبيين من الإمـامية إليـه، وفعلوا جميع ما وقعت الايمان عليه.

فصل

قـال ابن أبي طـيّ: وكانـت هـذه السنة شـديدة البرد، كثيرة الثلـوج، عظيمة الأمطـار، هائجة الأهـوية، وكان السلطـان قد جعل أولاد الـداية علالة لـه وسبباً يقطع به ألسنـة من ينكر عليه الخروج إلى الشـام، وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيـت لاستخلاص أولاد الداية، وإصلاح شأنهم، وأرسل السلطـان إلى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلـح، فامتنع كمشتكين، فاشتـدّ حينئذ السلطـان في قتال البلد، وكـانت ليـالي الجماعة عند الملـك الصالـح لاتنقضي إلا بنصب الحبـائل للسلطان، والفكـرة في مخاتلته، وارسال المكروه إليـه، فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنـان صاحب الحشيشية في ارصاد المتالف للسلطان، وإرسـال من يفتك به، وضمنوا له على ذلـك أموالاً جمة وعـدة من القـرى، فأرسـل سنان جماعـة من فتـاك أصحابـه لاغتيال السلطان، فجاؤوا إلى جبـل جوشن واختلطوا بـالعسكر فعرفهـم صاحب أبـو قبيس، لأنه كان مشاغراً لهم، فقال لهم: يـا ويلكم

كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه؟ فخافوا غائلته، فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه، وجاء قوم للدفع عنه فجرّحوا بعضهم، وقتلوا البعض وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار فقتله ، وطلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

قال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية، كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب، وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين، فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير، واتفق في أوّل هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم، فعظم شأنه وزاد خطره، فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان لست ممن يرهب بتألب الفرنج، وها أنا سائر إليهم، ثم أنهد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد انطاكيه فغنموا غنيمة حسنة وعادوا، فقصد القمص جهة حمص، فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ووصل إلى حمص، فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة وستأتي:

إيـــاب ابـــن أيـــوب نحـــو الشـــآ
م على كـــل مـــا يـــرتجيـــه ظهـــور
بيـــوســـف مصر وأيـــامـــه
تقـــرّ العيـــون وتشفـــى الصـــدور

رأت منك حمص لها كافيا
فواتاك منها القوي العسير

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ يقول في وصف قلعة حمص: «والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجماً في سحاب، وعقابا في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامه، عاقدة حبوة صالحها الدهر على أن لا يحلها بقرعه، عاهدة عصمة صافحها الزمن على أن لا يروعها بخلعه، فاكتنفت بها عقارب، منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة، فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحدّ إلاّ وقد أثرت فيها جدر يا يضربها، ولم تصل السابع إلا والبحران منذر نقبها، واتسع الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع إلى مولد هو إليها الطالع، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا (وسيرت الجبال)بها (فكانت سرابا) (١٤٢) فهنالك بدت نقوب يرى قائم من دونها ما وراءها، وحشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى أخيه العادل: «قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحدّ الذي يخرج عن العد، وبعد أن نرتب أحوال حمص حرسها الله، نتوجه إلى حماه، والله المعين على ما ننويه من الرشاد، وننظفه من طرق الجهاد».

وقال العماد: لما سمع المدبرون للملك الصالح بإقبال صلاح الدين المؤذن بإدبارهم، سقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة، وكاتبوهم وأرسلوا إلى صلاح الدين بالاغلاظ والاحفاظ، وكان الواصل منهم قطب الدين ينال بن حسان، وقال له: هذه السيوف التي ملكتك مصر، وأشار إلى

سيفه، إليها تردّك، وعما تصدّيت له تصدّك، فحلم عنه السلطان، واحتمله وتغافل كرماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور وتهذيب الجمهور، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ أخوة مجد الدين، فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لا ننزع في قوسك، ولا نأنس بأنسك، ولا نرتاع لجرسك، ولا نبني على أسك، فارجع حيث جئت أو اجهد واصنع ما شئت، ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع، ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطلع، ونال من تقطيب القطب ينال كل ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسم، وأخفى الاهتمال، ثم إنه استناب أخاه سيف الاسلام طغتكين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى، وامتنعت القلعة فأقام عليها من يحصرها، ورحل إلى حماه فأخذها مستهل جمادى الآخرة، ثم مضى ونزل على حلب فحصرها ثالث الشهر، فلما اشتدّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالاسماعيلية وعينوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات من فتاكهم كل عات، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمار تكين صاحب أبو قبيس، وكان مثاغرا للاسماعيلية، فقال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم، فقتلوه وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السلطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطغريل أمير جاندار واقف ثابت ساكن ساكت، حتى وصل إليه فشمل بالسيف رأسه، وما قتل الباقون حتى قتلوا عدة، ولاقى من لاقاهم شدّة، وعصم الله حشاشته في تلك النوبة من سكاكين الحشيشية، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قمص طرابلس، وقد كان في أسر نور الدين مذ كسرة حارم، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدا نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير، فتوجه في الافرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه مخوفاً مما يقع فيه ويتم عليه.

ومن كتاب فاضلي عن السلطان إلى العادل: « قد اعلمنا المجلس أن العدوّ خذله الله كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم، واستصالوا على الاسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماه، وأخذنا في ترتيب الأطلاب لطلبه ولقاه، فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بجبله، متفحصاً بحيله، وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب، فإن العدوّ قد سقطت حشمته، وانحطت فيه همته، وولى ظهراً كان صدره يصونه، ونكس صليباً كانت ترفعه شياطينه».

وقال العماد في الخريدة: لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب ابن أسعد بقصيدة أوّلها:

مانام بعد البين يستحلي الكرى
إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

كلف بقربكم فلما عاقه
بعد المدى سلك الطريق الأخصرا
ومودع أمر التفرّق دمعه
ونهته رقبة كاشح فتحيرا

ومنها في المديح:

تردي الكتائب كتبه فإذا غدت
لم يدر أنفذ أسطراً أم عسكرا
لم يحسن الأتراب فوق سطورها
إلا لأن الجيش يعقد عثيرا

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين: هذا الذي يقول: « والشعر ما زال عند الترك متروكا» فعجل جائزته لتكذيب قوله، وتصديق ظنه،

فشرفه وجمع له بين الخلعة والصنعة، وعنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصالح بن رزيك التي أولها : « أما كفاك تلافي في تلافيكا».

يقول فيها

يا كعبة الجود إن الفقر أقعدني
ورقة الحال عن مفروض حجيكا
من ارتجي يا كريم الدهر ينعشني
جدواه إن خاب سعي في رجائيكا
أأمدح الترك أبغي الفضل عندهم
والشعر ما زال عند الترك متروكا
أم أمدح السوقة النوكى لرفدهم
واضيعتا إن تخطتني أياديكا
لا تتركني وما أملت في سفري
سواك اقفل نحو الأهل صعلوكا

قلت: وقد مضى ذكر ابن أسعد هذا في اخبار سنة ثمان وخمسين، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ست وسبعين وثمان وسبعين، وما أحسن ما خرج ابن الدهان من الغزل إلى مدح ابن رزيك في قوله من قصيدة أوّلها :

إذا لاح برق من جنابك لامع
أضاء لواش ما تجنّ الاضالع

يقول فيها:

تمادى بنا في جاهلية نحلها
وقد قام بالمعروف في الناس شارع
وتحسب ليل الشح يمتدّ بعدما
بدا طالعا شمس السخاء طلابع (١٤٣)

فصل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضا إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتابا طويلاً رائقا فائقاً يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الافرنج في حياة نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة من أطراف المغرب، وإقامه الخطبة العباسية بها يقول في أوّله للرسول : «فإذا قضى التسليم حق اللقاء، واستدعى الاخلاص جهد الدعاء، فليعد و ليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً، منها لعله يشرح منا صدرا، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سرا.

ومن الغرائب أن تسير غرائب
في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى
والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا، وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا، وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا، وغيرنا يدّعي التصدير، ولابد أن نستردّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تردّ به الغصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وما كان العائق إلاّ أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمه يضاهي ابتداءنا بالخدمه، وانجابا للحق يشاكل انجابنا للسبق، وكان أوّل أمرنا أنا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أي مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدوّ كسر، أو مصاف للاسلام معه ضرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدوّنا أنا نصطلي الجمره، ونملك الكره، ونتقدّم الجماعه، ونرتب المقاتله، وندبر

التعبيه إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها، وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وإن النظام بها قد فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامة كل من قام وقعد، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة، لها مقادير خطيرة، وإن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعه فإنها مقموعه، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماه فإنها متحاماه، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الاسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غرّه تقلب الذين كفروا في البلاد، فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلها، ونسترجع للاسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالته منها، فسرنا إليها في عساكر ضخمه، وجموع جمه، وبأموال انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا، فعرضت عوارض منعت، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت (لكل أجل كتاب) (١٤٤)، ولكل أمل باب، وكان في تقدير الله أنا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عظم خطبها وخبطها، وعلم أن استئصال كلمة الاسلام محطها، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان كما كاتبنا بالعساكر المجموعة والأمراء والأهل المعروفة إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران، وتقرّر لنا في القلوب ودّان: الأوّل ما علموه من ايثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحق الأقدم، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم، وإقالة عثارهم، ففعل الله ما هو أهله، وجاء الخبر إلى العدوّ فانقطع حبله، وضاقت به سبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها وبلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صلبانه، ونصبت بها أوثانه، وأيس من

أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد، وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير وأموالهم واسعه، وكلمتهم جامعه، وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف، كلهم أغتام أعجام، إن هم إلاّ كالانعام لا يعرفون رباً إلاّ ساكن قصره، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانيه، موضوعة عنهم الجزيه، كانت لهم شوكة وشكة، وحمة وحمية، ولهم حواش لقصورهم من بين داع تتلطف في الضلال مداخله، وتصيب القلوب مخاتله، ومن بين كتاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل، وخدّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل، ودولة قد كبر نملها الصغير، ولم يعرف غيرها الكبير، ومهابة تمنع ما يكنه الضمير، فكيف بخطوات التدبير، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائره، وتحريف للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل، وكفر سمي بغير اسمه، وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه، فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار، ونتحيفهم تحيف الليل والنهار، فعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير، ولطيف توصل ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير، وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهز، والحشد الأوفز، وخصوصاً في نوبة دمياط فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب مقاتل وحامل، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ويصابحونها القتال الذي يصلبه الصليب، والقراع الذي ينادي به الموت من مكان قريب، ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر، ونصابر الضدّين المنافق والكافر حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد

فأخرجناهم من القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم وتارة بالأمور الفاضحة منهم، وطوراً بالسيوف المجرده وبالنار المحرقه، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرّقت شيعه، وتمزقت بدعه، وخفتت دعوته، وخفيت ضلالته، فهنالك تم لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء الأسود الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته، ولما خلا ذرعنا، ورحب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكفار، فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها براً وبحراً مركبا وظهراً إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسرا، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الاسلام فيها مذ أخذت من أيديهم، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم، فمنها ما حكمت فيه يد الخراب، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب، ومنها قلعة بثغر ايلة، كان العدوّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فساء منه خلقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرّقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام، فأخذت هذه القلعة، وصارت معقلاً للجهاد وموئلا لسفار البلاد وغيرهم من عباد العباد.

ثم قال: «وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدي الضال الملحد المبدع المتمرد، وله آثار في الاسلام وثار طالبه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سبى الشرائف الصالحات، وباعهن بالثمن البخس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعه، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها، وأحل الفروج المحرمة وأباحها، فانهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعه، واسلحة رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنجز الله فيه القصد،

والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند ساميه، وإلى ما يفتض الاسلام عذرته متماديه، ولنا في الغرب أثر أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك، كما يكون المهلك دون المطلب، وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لاتطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: برقة، قفصه، قسطيليه، توزر، كل هذا تقام فيها الخطبة لمولانا الامام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه، ولا عهد للاسلام باقامتها وتنفذ فيها الاحكام بعلمها المنصور وعلامتها، وفي هذه السنة كان عندنا وقد شاهده وفود الامصار، ورموه بأسماع وأبصار مقداره سبعون راكباً كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسيرنا الخلع والمناشير والألويه بما فيها من الأوامر والأقضيه، فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام، والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينيه، وهو الطاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغلبت، جرت لنا معه غزوات بحريه، ومناقلات ظاهرة وسريه، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداه، ومن مفاضحة إلى مناصحه، حتى أنه انذر بصاحب صقلية وأساطيله التي تردّد ذكرها وعساكره التي لم يخف أمرها، ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا في نوبة دمياط فغلبا وقسرا وهزما وكسرا، أراد أن يظهر قوّته المستقلة فعمر أسطولاً يستوعب فيه ماله وزمانه، فله الآن خمس سنين تكثر عدّته وتنتخب عدّته، إلى أن وصل منها في السنة

الخالية إلى الاسكندرية أمر رائع وخطب هائل، وما أثقل ظهر البحر مثل حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم يقله، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لو لا أن الله خذله، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الاسلام في الأموال المجلوبه، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبه، وما منهم إلاّ من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قرّرت معهم المواصله، وانتظمت معهم المسالمه، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون،ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية، وكنا في تلك السنة على نية الغزاة والعساكر قد تجهزت والمضارب قد برّزت، ونزل الفرنج على بانياس وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فرصة مدّوا يد انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها، وعوجل بالهدنة الدمشقية التي لو لا مسيرنا ما انتظم حكمها، ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الاخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوفون بها الأطراف الاسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميه، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا، والمماليك إلاّ عماد الدين خلقوا للاطراف لا للصدور، وجعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدّوا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً، وعلمنا أن البيت المقدّس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه وأمر الكفر إن لم نجرّد العزم في قلعه وإلا نبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه، وكانت الحجة لله قائمه، وهمم القادرين بالقعود دائمة، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوّه ، وإذا جاورناه كانت المصلحة باديه، والمنفعة

جامعه، واليد قادره، والبلاد قريبه، والغزوة ممكنه، والميرة متسعه، والخيل مستريحه، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعده، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتله، وأمور مختله، وأراء فاسده، وأمراء متحاسده، وأطماع غالبه، وعقول غائبه، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه فما نابه أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه، ويظهرون الوفاء في خدمته وهم عاملون بظلمه، والمراد الآن هو كل ما يقوّي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الالفه، ويضمن الرأفه، ويفتح بقية البلاد، وأن يطبق الاسم العباسي كل ما تطبقه العهاد، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام، وكلما تشتمل عليه الولاية النوريةوكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السمات التي فيها الملك، وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدّس ليس له قرن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لايمل الشر حتى يملوا، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شدّ رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مؤمن تحت برده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده».

ومن كتاب آخر فاضلي عن السلطان إلى الديوان في تعداد ماله من الأيادي: « والذي أجراه الله على يد المملوك من الممالك التي دوّخها، وسنن الضلال التي نسخها، وعقود الالحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رحضها، وحجج الزندقة التي دحضها فلله عليه المنة فيه إذ أهله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويد الله كانت عون يده، وإلا فقد قضت الليالي والأيام على تلك الأمور، وما تحركت للفلك في قلعها نابضه، وغيرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضه، فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منهما أن يجتهد في أخرى مثلها في الكفار، وقد عاد الاسلام إلى وطنه، وصوّحت من الكفر خضراء دمنه».

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه اعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه:« حتى أتى الدنيا ابن بجدتها، فقضى من الأمر ما قضى، وأسخط من لله في سخطه رضا، وجعل وجه لابسي السواد مبيضا، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم ودوّخت عليه الأمم، وشفى الصدور، وجاء بالحق إلى من غرّه بالله الغرور واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور».

ومن كتاب آخر: « قد بورك للخادم في الطاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الاعداء شفارها، وجمع عليها الدين وكان أديانا، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا».

ومن كتاب آخر: « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلاّ وعد كان العقد بينه وبين نور الدين رحمه الله في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكري بره وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره، فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكمت الآراء الفاسدة، وفورقت المحاج القاصده، وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين، والكفار محمولة إليها جزي المسلمين، والأمراء الذين كانوا للاسلام قواعد، وكانت سيوفهم للنصر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتطرّق الكفار بالبناء في الحدود الاسلامية، ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الاقطار وسيروا الصليب، ومن كسى مذابحهم بقمامه، وهدّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامه، وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورونه ممن يسمونهم القدّيسين، وقالوا: إن وقعت أوقعت فيما لا يستدرك فارطه وإن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والاساطيل القوية،

وللاسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقا، وهو يعبد خالقاً، وهم يعبدون خلقاً».

فصل

قال العماد: وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية في نور الدين، فنظمت بعد عودي إلى دمشق في رجب:

الديـــن في ظلـــم لغيبـــة نـــوره
والـــدهـــر في غمـــم لفقـــد أميره
فلينـــدب الاســـلام حـــامـــي أهلـــه
والشـــام حـــافـــظ ملكـــه وثغـــوره
مـــا أعظـــم المقـــدار في اخطـــاره
إذ كـــان هـــذا الخطـــب في مقـــدوره
مـــا أكثـــر المتـــأسفين لفقـــد مـــن
قـــرّت نـــواظـــرهـــم بفقـــد نظيره
مـــا أغـــوص الانســـان في نسيـــانـــه
أو مـــا كفـــاه الموت في تـــذكيره
مـــن للمســـاجـــد والمدارس بـــانيـــا
لله طـــوعـــا عـــن خلـــوص ضميره
مـــن ينصر الاســـلام في غـــزواتـــه
فلقـــد أصيـــب بـــركنـــه وظهيره
مـــن للفـــرنـــج ومـــن لأسر ملـــوكهـــا
مـــن للهـــدى يبغـــي فكـــاك أسيره
مـــن للخطـــوب مـــذلـــلا لجماحهـــا
مـــن للـــزمـــان مسهـــلا لـــوعـــوره
مـــن كـــاشـــف للمعضـــلات بـــرأيـــه
مـــن مشرق في الـــداجيـــات بنـــوره

-٨١٧٩-

مـــن للكـــريـــم ومـــن لنعـــش عثـــاره
مـــــن لليتيـــــم ومـــــن لجبر كسيره
مـــن للبـــلاد ومـــن لنصر جيـــوشهـــا
مـــن للجهـــاد ومـــن لحفـــظ أمـــوره
مـــن للفتـــوح محاولاً أبكـــارهـــا
يـــرواحـــه في غـــدوه وبكـــوره
مـــن للعلى وعهـــودهـــا مـــن للنـــدى
ووفـــوده مـــن للحجـــى ووفـــوره
مـــا كنـــت أحســـب نـــور ديـــن محمـــد
يخبـــو وليـــل الشرك في ديجوره
أعـــزز عليّ بليـــث غـــاب للهـــدى
يخلـــو الشرا مـــن زوره وزئيره
أعـــزز عليّ بـــأن آراه مغيبـــاً
عـــن محفـــل متشرف بحضـــوره
لهفـــي على تلـــك الأنـــامـــل إنها
مـــذ غيبـــت غـــاض النـــدى ببحـــوره
ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تجري رسمـــه
فضـــع العـــلامـــة منـــك في منشـــوره
ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تكشـــف كـــربـــه
فـــارفـــع ظـــلامتـــه بنصر عشيره
ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تـــؤمـــن سربـــه
وقـــع لـــه بـــالأمـــن مـــن محذوره
ولقـــد أتـــى مـــن كنـــت تـــؤثـــر قـــربـــه
فـــأدم لـــه التقـــريـــب في تقـــريـــره
والجيـــش قـــد ركـــب الغـــداة لعـــرضـــه
فـــاركـــب لتبصره أوان عبـــوره
أنـــت الـــذي أحييـــت شرع محمـــد
وقضيـــت بعـــد وفـــاتـــه بنشـــوره

كم قد أمرت بحفر خندق معقل
حتى سكنت اللحد في محفوره
كم قيصر للروم رمت بقسره
ارواء بيض الهند من تاموره
أوتيت فتح حصونه وملكت عقر
بلاده وسبيت أهل قصوره
أزهدت في دار الفناء وأهلها
ورغبت في الخلد المقيم وحوره
أو ما وعدت القدس أنك منجز
ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القدس من دنس العدى
وتقدّس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلا فمن
عجب نهوضكم بحمل ثبيره
يا عابرين بنعشه انشقتم
من صالح الأعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه
مستجمعين على شفير حفيره
ومن الجفاء له مقامي بعده
هلا وفيت وسرت عند مسيره
حياك معتل الصبا بنسيمه
وسقاك منهل الحيا بدروره
ولبست رضوان المهيمن ساحبا
أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين في فردوسه
حلف المسرة ظافراً بأجوره

قال العماد: وجاء نجاب إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكسوة، وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الخطوة،

فهاجني الطرب لقصده لسابق معرفته وقديم ودّه، فقدمت دمشق على طريق البرية، والسلطان على حلب، وكان العماد في عقابيل ألم فلما شفي وعاد السلطان إلى حمص قصده فيها، وقد تسلم قلعتها في شعبان في الحادي والعشرين منه، وقال: وكنت نظمت قصيدة في الشوق إلى دمشق والتأسف عليها، ثم جعلت مدح السلطان مخلصها وهي طويلة أوّلها:

أجيران جيرون مالي مجير
سوى عطفكم فاعدلوا أو فجوروا
ومالي سوى طيفكم زائر
فلا تمنعوه إذا لم تزوروا
يعز عليّ بأن الفؤاد
لديكم أسير وعنكم أسير
وما كنت أعلم أني أعيـ
ـش بعد الأحبة إني صبور
وفت أدمعي غير أن الكرى
وقلبي وصبري كل غدور
إلى ناس بانا ناس لي صبوة
لها الوجد داع وذكرى مثير
يزيد اشتياقي وينمو كما
يزيد يزيد وثورا يثور
ومن بردى برد قلبي المشوق
فها أنا من حره مستجير
وبالمرج مرجو عيشي الذي
على ذكره العذب عيشي مرير
فقدتكم ففقدت الحياة
ويوم اللقاء يكون النشور
تطاول لسؤلي عند القصير
فعن نيله اليوم باع قصير
وكن لي بريداً بباب البريد
فأنت بأخبار شوقي خبير

obeikandl.com

متى تجدّ السري بالقريتين
خوامص أثر فيها الهجير
ونحو الجليجل أزجي المطي
لقد جل هذا المرام الخطير
تراني أنيخ بأدنى ضمير
مطايا براها الوجا والضمور
وعند القطيفة والمشتهاة
قطوف بها للأماني سفور
ومنها بكوري نحو القصير
ومنية عمري ذاك البكور
ويا طيب بشراي من جلق
إذا جاءني بالنجاح البشير
ويستبشر الأصدقاء الكرام
هنالك بي وتوفى النذور
ترى بالسلامة يوما يكون
بباب السلامة مني عبور
وإن جوازي بباب الصغير
لعمري من العمر حظ كبير
وما جنة الخلد إلاّ دمشق
وفي القلب شوق إليها سعير
ميادينها الخضر فيح الرحاب
وسلسالها العذب صاف نمير
وجامعها الرحب والقبة الـ
ـمنيفة والفلك المستدير
وفي قبة النسر لي سادة
بهم للمكارم أفق منير
وباب الفراديس فردوسها
وسكانها أحسن الناس حور

والارزه فالسهم فالنيربان
فجنات مزتها فالكفور
كأن الجواسق مأهولة
بروج تطلع منها البدور
بنير بها تستبير الهموم
بربوتها يتربى السرور
وما غرّ في الربوة العاشقين
بالحسن إلا الربيب الغرير
وعند المغارة يوم الخميس
أغار على القلب مني مغير
وعند المنيبع عين الحياة
مدى الدهر نابغة ما تغور
بجسر ابن شواش ثم السكون
لنفسي بنفسي تلك الجسور
وما أنس لا أنس انس العبور
على جسر جسرين إني جسور
وكم بت أهو بقرب الحبيب
في بيت لهيا ونام الغيور
فأين اغتباطي بالغوطتين
وتلك الليالي وتلك العصور
وأشجار سطرا بدت كالسطور
رنمقهن البليغ البصير
وأين تأملت فلك يدور
وعين تفور وبحر يمور
وأين نظرت نسيم يرق
وزهر يروق وروض نضير
إلام القساوة يا قاسيون
وبين السنا يتجلى سنير

ومنـــذ ثـــوى نـــور ديـــن الالـــه
لم يبـق للـــديــن والشـــام نـــور
وللنـــاس بـــا لملـــك النـــاصر الـــ
ـــــــصلاح صـــلاح ونصر وخير
هـــو الشمـــس أفـــلا كـــه في البـــلاد
ومطلعـــــه سرجـــــه والسريـــــر
إذا مـــا سطـــا أو حبـــى واحتبـــى
فما الليـــث مـــا حـــاتـــم مـــا ثبير
بيـــوســـف مصر وأيـــامـــه
تقـــر العيـــون وتشفـــى الصـــدور
ملكـــت فـــاسجـــح فما للبـــلاد
ســـــواك مجير ومـــــولى نصير
وفي معصـــم الملـــك للعـــز منـــــ
ـــك ســـوار ومنـــك على الـــديـــن ســـور
لـــك الله في كـــل مـــا تبتغيـــــ
ـــــه بحـــق ظهير ونعـــم الظهير
أمـــا المفســـدون بمصر عصـــوك
وهـــذي ديـــارهـــم اليـــوم قـــور
أمـــا الادعيـــاء بها إذ نشطـــت
لابعـــادهـــم زال منـــك الفتـــور
ويـــوم الفـــرنـــج إذا مـــا القـــوك
عبـــوس بـــرغمهـــم قمطـــريـــر
نهوضـــاً إلى القـــدس يشفـــي الغليـــ
ـــــل بفتـــح الفتـــوح ومـــا ذا عسير
ســـل الله تسهيـــل صعـــب الخطـــو
ب فهـــو على كـــل شيء قـــديـــر
إليـــك هجـــرت ملـــوك الـــزمـــان
فما لـــــك والله فيهـــــم نظير

وفجـــرك فيـــه القـــرى والقـــرآن
جميعـــاً وفجـــر الجميـــع الفجـــور
وأنـــت تـــريـــق دمـــاء الفـــرنـــج
وعنـــدهـــم لا تـــراق الخمـــور

فصل

في فتح بعلبك

قال العماد: ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار إلى بعلبك فتسلمها في رابع شهر رمضان

قال ابن أبي طيّ: وكان بها خادم يقال له يمن، فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل من بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان.

قال العماد: وهنأته بأبيات منها :

بفتـــوح عصرك يفخـــر الاســـلام
وبنـــور نصرك تشرق الايـــام
وبفتـــح قلعـــة بعلبـــك تهذبـــت
هـــذي الممالـــك واستقـــام الشـــام
وبكـــى الحســـود دمـــا وثغـــر الثغـــر مـــن
فـــرح بنصرك للهـــدى بســـام
فتـــح تسنـــى في الصيـــام كـــأننـــا
شكـــراً لما منـــح الإلـــه صيـــام
مـــن ذا رأى في الصـــوم عيـــد سعـــادة
حلـــت لنـــا والفطـــر فيـــه حـــرام

أسدى صلاح الدين والدنيا يدا
بنوا لها سوق الرجاء تقام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذي
بحصوله لفتوحك الاتمام
دم للعلى حتى يدوم نظامها
واسلم يعز بنصرك الاسلام

قال: ولزمت خدمته أرحل برحيله، وأنزل بنزوله، وكنت ليلة عنده، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن سديد الملك علي بن منقد، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله موقوف، وإلى استحسانه مصروف، وقد استحسن قصيدة له طائية لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها على أن الشعراء المحدّثين ما منهم إلاّ من نظم على رويها ووزنها، واستمد خصب خاطره من مزنها فمنهم المعري وابن أبي حصينة والأرجاني والصالح ابن رزيك، وقد أوردت جميعها في كتاب الخريدة ومطلع قصيدة المعري: (١٤٥)

«لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا»

فنظمت في السلطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية منها:

عفا الله عنكم مالكم أيها الرهط
قسطتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتم
خيانتكم ما هكذا الود والشرط
جعلتم فؤاد المستهام بكم لكم
محطاً فعنه ثقل همكم حطوا
ملكتم فأنكرتم قديم مودّتي
كأن لم يكن في البين معرفة قسط

فـــدت مهجتـــي مـــن لا يـــذم لمهجتـــي
إذا حـــاكمتـــه وهـــو في الحكـــم مشتـــط
ومـــا كنـــت أدري قبـــل سطـــوة طـــرفـــه
بـــان ضعيفـــا فـــاتـــرا مثلـــه يسطـــو
وأهيـــف لـــلاشفـــاق مـــن ضعـــف خصره
يحل نطـــاقـــاً للقلـــوب بـــه ربـــط
يـــلازم قلبـــي في الهوى القبـــض مثلما
يـــلازم كـــف النـــاصر الملـــك البســـط
مليـــك حـــوى الملـــك العقيـــم بضبطـــه
كـــريـــم ومـــا للمال في يـــده ضبـــط
إذا الثمـــت أيـــدي الملـــوك فعنـــده
مـــدى الـــدهـــر إجـــلالاً لـــه تلثم البســـط
عنـــالـــك طـــوعـــاً نيـــل مصر ودجلـــة الـــ
ـــــعراق ودان الغـــرب والعجـــم والقبـــط
وللنيـــل شـــط ينتهـــي سيبـــه بـــه
ونيلـــك للـــراجين نيـــل ولاشـــط
عـــدوّك مثـــل الشمـــع في نـــار حقـــده
لـــه عنـــق اصـــلاح فـــاســـده القســـط

وهي ثمانيـة وثمانون بيتاً، ولسعادة الأعمـى قصيدة طائيـة في السلطان سيأتي ذكرها.

قال العماد: ولما وصلت إلى السلطـان ورغبت منه في الاحسان وجـدته لأمـري مغفلاً، ولشغلي مهمـلاً، ثـم عرفـت أن حسادي قـالـوا له: متـى أعـدت ديوان الكتـابة إلى العماد وهـو لا شك بمحـل الوثـوق والاعتماد، وهـذا منصب الأجـل الفاضـل، وهـو عنده في أجـل المنازل، ربما ضـاق صدره، وتشعث سره، فلما عـرفت هذا المعنى، لجأت إلى الفضـل الفاضلي لأنه به يعني، فقام بأمري، ونوّه بقدري وأراح سري وشدّ أزري.